

عبد الستار إيدهي

أغنى رجل فقير

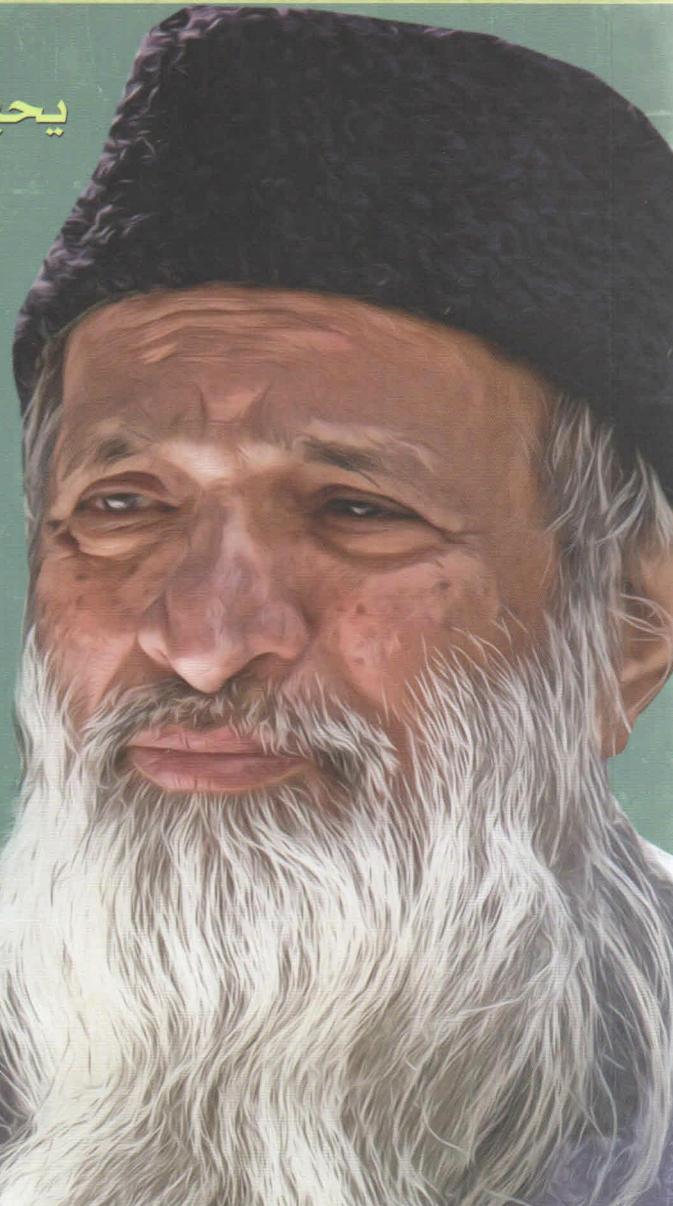
The Richest Poor Man

2016 - 1928

يحيى محمد المصري

الطبعة

2



يحيى محمد المصري

عبدالستار إيدهي

الكويت: دار سما للنشر والتوزيع 2017

ص 222 سم 222

الفلاف: رفعة العجمي

للتدقيق اللغوي وإخراج الكتب بإشراف الأستاذين:

محمد خميس وسامح شعبان

Isan.dad.201@gmail.com



مركز لسان الصاد

جميع حقوق الطبع محفوظة

م 2017 هـ - 1438

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقرئه أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطى من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار سما للنشر والتوزيع



+965 67076866
+965 90055534

www.dar-sama.com
dar_sama@hotmail.com

darsama
[@dar_sama](https://twitter.com/dar_sama)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

سُبْحَانَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(لَيْسَ الَّرَّبُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ
الَّرَّبُّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْكِتَابِ
وَالْبَيِّنَاتِ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذُوِّ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينَ وَأَبْنَى السَّبِيلَ وَالسَّاَبِيلَنَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَوَةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنَّاقُونَ ١٧٧)

الإهداء

إلى المـكـفـولـينـ بـنـظـرـ أـعـظـمـ يـتـيمـ صـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـيـهـ وـعـلـىـ آـلـهـ
وـسـلـمـ، قـرـبـاـ وـمـجـالـسـةـ ...

وـإـلـىـ السـاعـيـنـ لـهـاتـيـكـ الـفـرـادـيـسـ ...

وـإـلـىـ كـلـ مـسـحـ بـإـحـسـانـهـ عـلـىـ ضـعـيفـ، أـوـ حـضـرـ عـلـىـ إـطـعـامـ
ذـوـيـ مـسـغـبـةـ أـوـ مـتـرـبـةـ ...

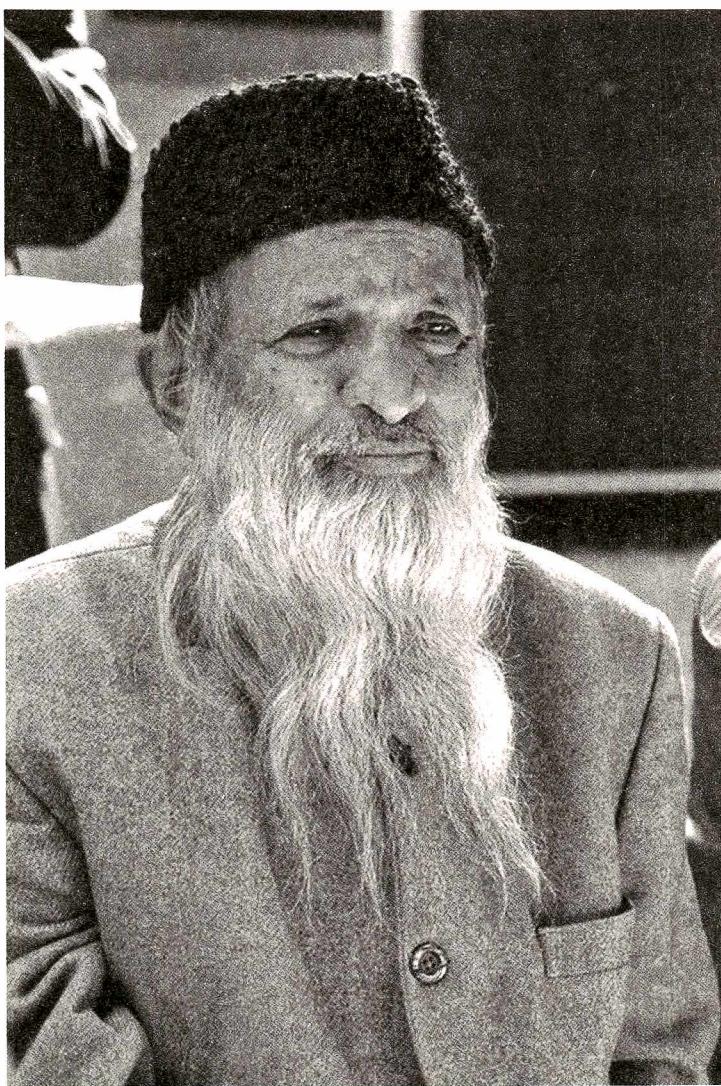
إـلـىـ الـذـائـقـيـنـ أـعـذـبـةـ غـيرـهـمـ تـطـوـعـاـ وـمـوـاسـاـةـ ...

إـلـىـ كـلـ جـمـاعـةـ اـئـلـفـتـ قـلـوبـهـاـ، وـارـتـقـتـ غـایـاتـهـاـ، سـبـقـاـ إـلـىـ عـرـوـشـ
الـعـالـيـ، وـحلـبـاتـ الـمـعـرـوفـ ...

إـلـىـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ بـوـعـدـ اللهـ تـعـالـىـ، وـكـذـبـواـ وـعـدـ الشـيـطـانـ، فـبـذـلـواـ
الـأـطـيـبـ الـأـنـفـسـ، وـاتـقـواـ شـحـ الـأـنـفـسـ ...

إـلـىـ كـلـ دـالـٌـ عـلـىـ خـيـرـ، وـلـوـ بـشـطـرـ فـكـرـةـ، أـوـ إـشـارـةـ، أـوـ حـرـفـ ...

يجـيـ المـصـريـ



مقدمة

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد، فكثيرون هم الذين يحظون برقم، واسم، في سجلات الولادات، ولكنهم - في لاحق الأيام - لا يقدمون للإنسانية شيئاً يرضي ربهم عزّ وجلّ، وينفع أمتهم؛ فتموت أسماؤهم وأفعالهم في حياة أجسادهم، قبل أن تموت من السجلات. ويتشابه دخول ودخول، وخروج وخروج. ويغدو الدخول زيادة على الحياة، لا زيادة فيها، كما قال الأديب الرافعي رحمة الله تعالى. ويغدو الخروج بلا لوعة، اللهم إلا لوعة فراق مادة البدن.

ولكن ثمة قليل يرحلون، وتبقى الأمة تعرف من ربع أعمالهم، وصبيب إنجازاتهم.

يدخلون الحياة، وبصائرهم الثاقبة، معلقة بالحياة الأبدية؛ لذا فإن أكثر هذا الصنف من الفوقة، يرحلون ولما تشبع نفوسهم الكبيرة من طلب المعالي، يرحلون وقد أرهقوا أجسامهم في

كم الات أرواحهم.

بين نظري فكرك، وقلبك، سيرة فذ من هؤلاء، عَبَرَ دنيانا، فعقب
الطيب حيث عبر، وشاعت الرحمة، حين عمل، واطمأنت
نفوس بعد شتات وشدة، واستقامت أعمال بعد تيه وضلال،
وَسَنَّ في الخير حسنات، وفتح لِإحسان أبواباً.

ثم استقر به مقعده عند مليك يحب الرحماء، ويكرم وفادتهم،
نسأل الله الرحمن الرحيم، له مغفرة، جراء، عطاء، درجات،
فراديس، رضي... .

رام الكاتب جهد حروفه، أن يسطر موجز حياة الراحل،
فتراحتبت عليه سجلات كتابه، فاستسلم للدلالة على الأثر، لا
أكثر... .

حين عزمت على كتابة سيرة هذا الرجل الفذ، وجدت أنَّ كل
ما كُتب عنه كان بغير العربية، اللهم إلا صفحات، أو سطوراً
مكرورة، في بعض الصحف العربية، ينقل بعضها عن بعض.

كانت الكتابات المستفيضة بالإنجليزية، والأوردو، وغيرهما،
ولأن معرفتي بالإنجليزية ضعيفة جداً، فقد طلبت المساعدة من
زوجتي العزيزة آلاء محمد هاني عزيزة أم البراء، إذ كان

تخصصها هو اللغة الإنجليزية، فلبتُ الطلبَ مشكورة،
وانطلقتُ معًا، كلما وجدنا توافقًا في وقت الفراغ كتبنا شيئاً، وما
أشق اقتناص فراغ من شواغل أسرة، وأولاد، ومدارس، وآلام
غربة، وجراح وطن، وفرقة أحبة...

وفوق هذا، فإن شح المعلومات كان عائقاً عن مواصلة الكتابة
عند توافر النشاط، فعلى سبيل المثال:

مع بداية البحث عن نشأة (عبدالستار إيدهي)، لم أجد شيئاً
أكتبه عن والده، حتى إنني لم أعثر على اسمه، ولا على أي كلمة
عنه.

في حين أن كل المصادر أسهبت في الحديث عن أمه!.
فتوقفت مدة، بعد أن اكتملت مادة الكتاب تقريرياً، ثم تسنى لي
راسلة بعض الإخوة الباقستانيين الفضلاء، عبر موقع
(التواصل)، من يحسن العربية، ووعدي خيراً، ثم لم يظفر
بشيء، فطلبت منه أن يكلم السيد فيصل بن عبدالستار، فلم
نرجع من ذلك بشيء. والتمسنا له العذر بالاشغال بمهام
مؤسسة (إيدهي) الضخمة.
ثم حظيت لاحقاً بائزراً عن والده، أضاء لي بعض الطريق،

فجمعت ما تحصل عندي، وربطته ببعضه جيّعاً.
وما جرى في ذات السياق، أني ذهبت إلى حلاق الحي، فحدثه
عما قصدتُ كتابته، فسُرَّ كثيراً، وقال لي:

«كل الباكستانيين يحملون لهذا الرجل حباً وإكباراً»،

فطلبت معلومات أو كتاباً، فأرشدني إلى جاره الخياط الذي
سيسافر قريباً في إجازة إلى بلده باكستان، فذهبت وطلبت إليه،
أن يتكرم عليّ، بكتاب أو أكثر عن (السيد عبد الستار إيدهي)،
فأعجب بالفكرة، وأفصحت تعابير وجهه عن مكانة هذا
الرجل في مجتمعه، بل قرأت فيه فخرًا واعتزازًا، وحقاً فقد عاد
من إجازته بكتاب عن حياة (إيدهي)، مكتوب باللغة
الإنجليزية، فأفدتُ منه، في إضاعة بعض الزوایا.
لم أسلك في هذا الكتاب، مسلك المادح الأعمى الأصم، الذي
قال فيه المثل: (حبك الشيء يعمي ويصمّ).

ولكن سعيت إلى حاسنه النادر أمثالها في هذا العصر، - وما
أكثرها عنده - فعرضتها، وأطّرتها. ولم آذن لهمتي بتتبع
الأخطاء، فإن صادفتها في طريقي، ترفقت بها، وحملتها على
أحسن المحامل، وأحسن الظنون، فإن لم أجدها - بقدر فهمي

وطاقتني - صرحت بخطتها، بلا تردد ولا مواربة.

* * *

وكنت قد شرعتُ في الكتابة بُعْد وفاة السيد عبدالستار إيدهي بأسابيع، ولم يتيسر لي الفراغ منها إلا بعد سنة تقريباً، ولو صُممَت أوقاتُ الكتابة إلى بعضها ما زادت عن خمسة أشهر. وقبل الإبحار في سيرة رجل يتنفس إنجازاً ورقة، ينبغي أن أنبه إلى أن الأرقام الواردة - وهي كثيرة - في هذا الكتاب، صحيحة، دقيقة، إلى زمن الفراغ من كتابة الكتاب، ولكن كثيراً منها عرضة للتغيير والتطوير، كما أني نقلتها عن مصادرها، ولم أشتَهِ إثقال الكتاب بحواشٍ توثق المصادر، إلا في حالات قليلة.

* * *

أرجي حدايق شكري للحلاق، والخياط، والمترجمة أم البراء، ولمن تفضل علي، وأحسن إلىَّ من نسيت، سائلاً الكريم الوهاب أن يجزيهم جميعاً خير الجزاء.

وكتبه / يحيى محمد المصري

٥ ذي الحجة / ١٤٣٨ هـ - ٢٧/٨/٢٠١٧ م

موهبة في محض التوفيق

في الهند، في قرية صغيرة تدعى (بنتوا) = (Bantva) من ولاية (كوجارات)^(١) = (Gujarat) قبل تقسيم شبه القارة الهندية كان (حاجي عبد الشكور إيدهي) - أي الحاج عبد الشكور، رجلاً صالحًا في علاقته بربه - فيما يبدو للناس -، محبوبًا مبجلًا في مجتمعه ومحيطه، عمل في مهنة الخياطة مدة، وفي تجارة الأقمشة أيضًا، ولكن أكثر عمله كان في تجارة الحبوب،

(١) - إحدى ولايات الهند، وتنقسم الهند إلى (٢٨) ولاية، و(٧) أقاليم اتحادية، تقع ولاية غوجارات في شمال غرب الهند، وعاصمتها غاندیناغار التي سميت على اسم المهاقا غاندي. وهي ولاية تاريخية وصناعية، تشمل جزءاً من إقليم بومباي. يجاور منطقة غوجارات بحر العرب وباكستان والولايات: راجاستان، وماديا، وبراديش، وماهاراشترا، ودادرا وناغار هافيلي. وتستخدم فيها اللغة الغوجاراتية بكثرة. ظلت غوجارات مملكة منفصلة من عام ١٤٠١ حتى احتلها المغول الكبار في عام ١٥٧٢ م. عدد سكانها يقارب ٦٥ مليون نسمة، ومساحتها ١٩٦٠٢٤ كم٢. كما تعد ثانية أكبر منتج للذهب والمجوهرات في العالم، وتسهم بـ (٨٥٪) من إجمالي إنتاج الهند من المجوهرات. وفيها مدينة سورات: «عاصمة الألماس في العالم».

والفاكه المجففة. ولشدة ثقة الناس به، واطمئنانهم للتعامل معه، بيعاً وشراءً، وغير ذلك، لقبوه بـ(التاجر الموثوق)، ولعل ترجمتها العربية تنطبق على اللفظ الوارد في حديث نبوي شريف، وهو (التاجر الصدوق).

كانت التجارة هي المهنة الغالبة على أجداده وعائلته، التي تنتهي إلى شعب الميمون، وهم تجار من جنوب آسيا. ولكنهم كانوا من صغار التجار، ولم يكونوا من كبارهم.

لم تكن تجارتة لترفعه إلى درجة الشراء، فبقي متوسط الحال، ولا سيما أن الأوضاع السياسية حينئذ، كانت بالغة السوء والاضطراب، فمع أن غالبية سكان مدینتة كانوا من المسلمين، إلا أن أحداً خطيرة، كانت تهدد هويتهم، كرسها الاحتلال البريطاني للهند، وبقيت آثارها بعد جلائه. فكانت تندلع بين فينة وأخرى اضطرابات وصراعات بين الهندوس والمسلمين، حتى تَشكّلَ لدى عامة المسلمين وخاصتهم، شعور بوجوب المحافظة على الهوية الإسلامية، منها غالا الثمن.

وكان وجود خصومة، أو تهديد، يرفع نسبة التمسك بكل

تفاصيل الهوية، لدى المجتمع عامة، ويُصْرُّه بصفاء هويته الإسلامية، ونقاها، حين يقارنه بياطِل خصمه. كما يدفع للانضباط السلوكي، بنسبة أكبر، مالو كان الخصم غير متأهب، ولا مجاور.

التفاصيل التي تُظن صغيرة، أو غير مهمة، تتجلّى شمسها عند الأزمات، ويدرك الناس موضعها في تعيين قواعد البناء، وتمكّنه.

في المضمون ذاته، كان حرص الحاج عبد الشكور إيدهي شديداً على أداء فريضة الحج، وزيارة مكة المكرمة، والمدينة المنورة، على حرسها الله تعالى، وزادهما شرفاً - وغير خافٍ مشقة السفر في زمانه، وتكلفة الحج الباهظة، ومع ذلك فقد تغلبت أتواقه على كل الأثمان البدنية، والمالية، والنفسية.

وعلی كثرة خصال الفضل في شخصية الحاج عبد الشكور، فإن
حصلة منها - فيما ظهر لنا - قُدِّرَ لها أن تبرز إلى دنيا الناس،
وحركة الواقع، وصفحات التاريخ.

رزق الحاج عبد الشكور مِن زوجته (جوربا) = (Ghurba)
أربعة أولاد: اثنان من الذكور، واثنتان من الإناث، عرفتُ من

أسئلهم عبد العزيز وعبد الستار فقط.

أما عبد العزيز فلم أجد في المصادر التي وصلت إليها، شيئاً عنه سوى اسمه، لا قليلاً ولا كثيراً.

وأما عبد الستار، فهذا الكتاب كله، محاولة للاطلاع على معاليه، والإفادة من آفاته.

رَبِّي الحاج عبد الشكور أبناءه على تعاليم الدين الإسلامي عامة، ومساعدة الناس خاصة، فَغَرَسَ فيهم حب الأعمال الخيرية. بل دفع معهم في التفاصيل، فكان مما حفظ لنا ولده عبد الستار من وصياته:

« حين توجهون إلى العمل الخيري، فلا تكتفوا بالترع لمؤسسة خيرية، أو لجنة إغاثية، ولكن اذهبوا بأنفسكم للمحتاجين، قدّمُوا معرفكم بلا وسائل، ولا حواجز، لا تقبلوا أن ينوب عنكم في إيصال المعروف أحد، ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ».

وإنها لوصية حكيم، مجدد، مشفق.

والحكمة منها واضحة للأحسان، ذلك أن ملامسة حاجة

الناس ، فـقـرـاً كـانـتـ ، أو يـتـمـاً ، أو عـجـزاً ، أو مـرـضاً ، أو غـيرـ ذـلـكـ ،
تـورـثـ في القـلـبـ رـقةـ أـكـبـرـ ، وـدـقـةـ أـبـلـغـ ، وـرـهـافـةـ حـسـ ، في مـعـرـفـةـ
الدوـاءـ الـأـنـجـعـ لـلـدـاءـ ، وـمـاـ أـكـثـرـ مـاـ وـقـعـ الدـوـاءـ أـسـيـرـاـ لـلـوـسـائـطـ ،
حتـىـ ضـلـ طـرـيقـهـ إـلـىـ الدـاءـ !ـ .ـ

وـلـاـ يـخـفـىـ عـلـىـ إـنـسـانـ هـذـاـ الزـمـانـ ، تـراـكـمـ الـوـسـائـطـ ، وـاشـبـاكـ
خـيـوـطـهـ ، إـلـىـ مـسـتـوـيـاتـ طـوـيـلـةـ مـِنـ التـعـقـيـدـاتـ المـتـعـبـةـ .ـ

* * *

أـحـبـ الحاجـ عبدـ الشـكـورـ لـأـوـلـادـ مـسـتـوـيـاتـ عـلـمـيـةـ عـالـيـةـ ، فيـ
درـاسـتـهـمـ ، وـمـعـ أـنـهـ لـدـيـنـاـ تـفـاصـيلـ أـكـثـرـ عـنـ حـيـاةـ أـبـنـائـهـ ،
وـدـرـاسـتـهـمـ .ـ فـإـنـهـ يـبـدـوـ مـِنـ سـيـرـةـ العـائـلـةـ أـنـهـ رـغـبـةـ لـمـ تـتـحـقـقـ ، إـلـاـ
فيـ حدـودـ ضـئـيلـةـ مـِنـ النـوـاحـيـ الـمـادـيـةـ ، الـعـلـمـيـةـ ، وـالـقـاـفـيـةـ .ـ وـقـدـرـ
الـلـهـ وـمـاـ شـاءـ فـعـلـ ، وـسـبـحـانـهـ مـِنـ إـلـهـ حـكـيمـ ، رـحـيمـ ، عـلـيمـ .ـ
كـانـ مـِنـ بـيـنـ أـوـلـادـ السـيـدـ عبدـ الشـكـورـ ، ولـدـ اـسـمـهـ (ـعـبدـ
الـسـتـارـ)ـ ، رـبـآـهـ مـعـ إـخـوـتـهـ عـلـىـ فـاضـلـ الـأـدـابـ ، وـرـفـيـعـ الـقـمـ
الـخـلـقـيـةـ ، قـدـرـ اـسـتـطـاعـتـهـ ، وـحـسـبـ الإـمـكـانـيـاتـ المـتـاحـةـ زـمـانـاـ
وـمـكـانـاـ .ـ

كـانـتـ وـلـادـةـ عبدـ الـسـتـارـ عـامـ (ـ١٩٢٨ـ)ـ مـ ، فيـ هـذـاـ الـمـجـتمـعـ الـذـيـ

و صفتُ، و حين تأهل لدخول المدرسة، أدخله والده مدرسة في قرية تابعة لولاية (ગુજરાત) = (Gujarat)، وأراد له أن يتبع دراسته إلى أقصى مدى متاح، وأن يتزود بثقافة عالية، ومعرفة واسعة. و فعلًا دخل تلك المدرسة التأسيسية، مدفوعًا بضموج ذاتي، وتوجيه أبوي. ولكن لم يتمكن من إكمال دراسته، الدراسة التي علق عليها أبوه آملاً كبارًا، فقد أصبحت أمه بمرض أقعدها، كان ذلك عام ١٩٣٩ م. وبعد أن كانت القلب الحاني لهذه الأسرة، تساعد أبناءها، وتربيهم أعلى تربية، وأرهفها، انقلب حالها إلى طلب العون والمساعدة. فانقطع عبد الستار عن المتابعة، ولكن حبه للعلم، وشغفه بالمعرفة، لم ينقطع.

من المواد الدراسية التي علقت بفواده، - كما يذكر الطالب عبد الستار - مادة (التاريخ الاجتماعي)، ولا يحتاج أحدنا لعميق تفكير، ليصل إلى رابط بين شخصية عبد الستار، وبين مضمون هذه المادة؛ فهذه مادة تكره فلسفات الأبراج، ونظريات الكسالي. وتحب واقع الناس، وتساير أيامهم، بحلوها ومرها، واقتصادهم، ومعيشتهم، وصلة ما بينهم، ونحو هذا، مما

يلاصق أزمنة المجتمعات البشرية.

* * *

كان ذلك كل ما تزود به عبد الستار، من مدرسة قريته، فيما بدا لنا.

كان عمل والده بعيداً عن المنزل، فكان يرسل لهم أكياس الفواكه ليغذوا بها، وكانت أم عبد الستار تقسمها مناصفة مع الفقراء، وتكلف طفلها عبد الستار بتوزيعها على الفقراء، والمحاجين.

* * *

نعود الآن إلى الحدث الذي أُورى جندة لم تنطفئ، في كيان الطفل (عبد الستار إيدهي)، ألا وهو إصابة أمه بمرض السكري، ثم بالسكتة الدماغية، التي نتج عنها شلل في الجسم، وإعاقة في الذهن.

كان عمره يوم إصابتها بالمرض (١١) ربيعاً، فسخر ربيعاً، وكلّ فصوله، لبر أمه وخدمتها، والقيام على شؤونها. وكانت تلك المرحلة، أول مواجهة شخصية، بين طفل يافع، وبين جيش من الآلام النفسية. فلئن كانت أمه تعاني آثار السقام الذي ابتليت

به، فإن صغيرها كان يواسيها من قلبـه وشـعورـه، بما يوازي
مـرضـها أو يـزـيدـ.

وأولـي التـضـحـياتـ الكـبـرـيـ،ـ الـتـيـ بـذـلـهـاـ فـيـ سـبـيلـ خـدـمـةـ أـمـهـ،ـ هـيـ
الـانـقـطـاعـ عـنـ مـاتـبـعـةـ الدـرـاسـةـ،ـ حـتـىـ إـنـهـ لـمـ يـنـلـ الشـهـادـةـ الثـانـوـيـةـ.
ظـلـ عـلـىـ هـذـهـ الـحـالـ قـرـابـةـ (٨)ـ سـنـوـاتـ،ـ مـتـفـرـغاـ لـخـدـمـةـ أـمـهـ،ـ
وـتـنـظـيفـهـاـ،ـ وـإـطـعـامـهـاـ،ـ وـرـعـاـيـتهاـ،ـ حـتـىـ تـوـفـاـهـاـ اللـهـ تـعـالـىـ،ـ وـعـمـرـهـ
(١٩ـ)ـ عـامـاـ.

كـانـتـ طـوـفـ بـخـيـالـ الفتـىـ أـحـلـامـ،ـ وـذـكـرـيـاتـ،ـ وـأـشـيـاءـ...ـ
مـدـرـسـتـهـ،ـ أـصـدـقـاءـ المـدـرـسـةـ،ـ أـسـاتـذـتـهـ،ـ الـحرـمانـ الـذـيـ آـلـ إـلـيـهـ،ـ
فـيـقـفـزـ بـخـيـالـهـ لـيـتـخـيـلـ أـصـدـقـاءـهـ،ـ وـقـدـ أـكـمـلـوـاـ سـيـرـهـمـ درـاسـيـاـ،ـ
وـنـهـلـوـاـ مـنـ أـسـاتـذـتـهـمـ الـكـثـيرـ.

لـكـنـ عـزـيمـةـ (ـعـبـدـ الـسـتـارـ)ـ لـمـ تـكـنـ لـتـسـتـسـلـمـ،ـ أـوـ تـضـعـفـ،ـ فـاتـجـهـ
إـلـىـ مـدـرـسـةـ الـأـيـامـ الـمـفـتوـحةـ،ـ يـسـتـلـهـمـ دـرـوسـهـاـ،ـ وـيـجـعـلـ مـنـ آـلـهـاـ
وـأـوـجـاعـهـاـ،ـ سـُلـّمـاـ إـلـىـ مـجـدـ،ـ كـانـ يـطـمـحـ أـنـ يـرـتـقـيـ إـلـيـهـ بالـدـرـاسـةـ
وـالـعـلـمـ النـظـريـ!ـ.

مـاـ أـكـثـرـ الشـهـادـاتـ الـتـيـ يـصـفـَّـ فيـ حـفـلـ تـوزـيعـهـاـ،ـ وـمـاـ أـكـثـرـ
الـمـنـاصـبـ الـتـيـ يـغـتـصـبـهاـ بـعـضـ حـمـلةـ تـلـكـ الشـهـادـاتـ!ـ

ولكن، ما أقل من ينجح منهم في امتحان الحياة، والإنسانية! .
لقد كَرَسْتُ هذه (التراث)، أنانِيَةً باسم العلم، وحسداً،
وكسلاً، وإعجاباً بالذات، واستعلاء على الآخرين، وأوهاماً
كثيرة أخرى .
وإنَّ ما امتاز به (عبد الستار)، هو امتلاكه حسناً شفيفاً، وقلباً
رقيقاً، يسمع بهما أنين المعذبين، ويطير بهما إلى آمال الذين
حبستهم الإعاقات، والأسقام. ومحسساً يقيس به نبض آلام
الناس، وأعدبتهم.

هتف به هاتفِ من شعوره المرهف، يقول له:
في الأرض، وفي بلدك، الكثير... الكثير... من المرضى مثل
أملك...»

يمسح دموعهم.

يقول السيد (عبد الستار)، في مذكرات حياته، التي نشرها عام

: ١٩٩٦

«لقد أجبرتني معاناة الوالدة، على التفكير بالذين يعانون، وليس
حو لهم أحد يعينهم».

* * *

رحمك الله تعالى، يا أم عبد الستار.

ورحمك الله تعالى يا عبد الستار.

أما أم عبد الستار، فقد كان الابتلاء الذي أصابها، رحمة وارفة،
ودفناً فاض سناه، على أعداد لا تُحصى كثرةً، من المرضى،
والزمني، والشردين، والمدميين، واليتامي ...

فكان في الظاهر بلاء، ولكنه كان في الباطن رحمة عميقة. مع
اليقين بأنه خير لها، من حيث حيازتها لأجر صبرها، وأجر عظيمٍ
ما غرست في طفلها عبد الستار.

وما الذي غرسته أم، توطن السقام جسمها ابتداءً، ثم زاد فبلغ
بها الإعاقة الذهنية؟!.

وما عسى أن يرتفع طفل، من تربة أم مرضت، وصغيرها في

الحادية عشرة؟!.

لقد غرسـتـ حـنـانـا لا تـحـيـطـ بـهـ العـبـائـرـ، وـحـبـا لا تـعـرـفـهـ كـلـ
دـرـاسـاتـ الـمـعـنـيـنـ بـشـؤـونـ الرـوـحـ، وـالـطـمـوـحـ. وـسـخـاءـ وـهـنـتـ
أـقـلامـ الـبـلـغـاءـ عـنـ تـصـورـ مـدـاهـ.

هـاهـنـا منـجـمـ ثـرـ، تـمـتـحـنـ عـنـدـهـ، نـظـريـاتـ الـمـتـخـصـصـينـ فيـ عـلـومـ
الـتـرـبـيـةـ، وـالـنـفـسـ، وـالـاجـتمـاعـ، وـغـيرـهـاـ.

الـأـمـوـمـةـ وـحـدـهـاـ إـحـسـانـ، وـلـوـ كـانـتـ هـيـ الـرـابـطـ الـأـوـحـدـ.
ذـلـكـ لـأـنـهـاـ قـدـمـتـ لـهـ - وـهـوـ غـافـلـ - وـهـنـاـ أـذـابـ جـسـمـهـاـ، وـأـنـحـلـ
رـاحـتـهـاـ، وـأـقـلـقـ طـمـأـنـيـتـهـاـ. آـثـرـتـهـ بـغـذـائـهـاـ - وـهـوـ لـاـهـ - فـبـاتـ فـيـ
شـبـعـ، وـبـاتـ عـلـىـ شـفـاـ جـوـعـ، أـوـ وـقـعـتـ بـيـنـ أـنـيـابـهـ، وـخـالـبـهـ.
فـجـادـتـ عـلـيـهـ بـقـطـرـةـ مـنـ لـبـنـ عـطـفـهـاـ، وـحـنـانـهـاـ؟ـ!
وـكـيـفـ إـذـاـ سـهـرـتـ عـلـيـهـ لـيـلـةـ، أـوـ اـرـتـاعـتـ لـغـيـابـهـ، أـوـ غـيـابـ

بـسـمـتـهـ؟ـ!

وـكـيـفـ إـذـاـ حـدـثـنـاـ عـدـ الـسـتـارـ الـطـفـلـ، عـنـ عـطـاءـ أـمـهـ يـوـمـ كـانـ
طـفـلاًـ:

«عـنـدـمـاـ كـنـتـ صـغـيـرـاـ، كـانـتـ أـمـيـ تـعـطـيـنـيـ فـلـسـينـ، فـلـسـ لـيـ،

والآخر لأساعد به إنساناً أو زميلاً فقيراً لي».

عطاء يسمى إلى أعلى الدرجات، ويسابق عظماء الباذلين،
ومشاهير الكرماء.

باستحضار ثلات نقاط، ندرك أن هذا الثناء قاصر عن صعود
أولى درجات الحقيقة:

١ - أن كرم كل إنسان، إنما تعلم حقيقته، بالنظر في نسبة ما
أنفق إلى ما عنده من مال، وليس في قدر المال المبذول، يقول
النبي صلى الله تعالى وعلى آله وصحبه وسلم:
 «سَبَقَ دِرْهَمٍ مِائَةً أَلْفِ دِرْهَمٍ. قَالُوا: وَكَيْفَ؟!
 قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمًا نَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وَأَنْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى
 عُرْضِ مَالِهِ فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةً أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا». رواه النسائي.

٢ - أن الكرم المادي المنبعث عن قلب مخلص، ينال من الأجر
بقدر إخلاص قلب صاحبه، ويسمى أو ينزل، بمقدار نسبة
الإخلاص، في قلب الكريم المتصدق. والإخلاص إذا صاحبَ
القليل، جعله عظيم الأجر، وإن خلا عنه، أو نقصت نسبته،

كان الأجر على قدر تلك النسبة.

٣ - أن أم عبد الستار رحمهما الله تعالى، غرست في طفلها بذور الإيثار، والكرم، والصدقة. وسعت لتهذيب روحه من أدran الأنانية، والطمع. وشتان بين من يتصدق، وبين من يربّي غيره، على الصدقة، ويدربه على كرم النفس. فأجر الشافي - لا شك - أعظم.

* * *

والتفاصلُ بين العمل القاصر، وبين المتعدي، وكذا التفاصل بين عملين متعددين، إنما يكون بسبب تفاضل الأثر، واتساع الخير.

* * *

كم كان صدقتكِ عظيمة، يا أم عبد الستار !
وأي عطف، وحنان ذاك الذي غرسته في حنایاه؟!

* * *

ولم تكن تكتفي بذلك، فكانت تتبعه في اليوم التالي، وتسأله بانتظام: كيف، ولمن أعطى الفلس؟
كانت حازمة في هذا الموضوع، تضعه موضع الجد، ولا سيما

حين يتصرف الطفل عبد الستار تصرفاً غير لائق مع القراء، أو يخالف وصايتها.

يقول عبد الستار:

«لم تكن ترضى بمساومات، ولا حلول وسط، في أمثال هذه
القضايا» ! .

وهذه صورة من طفولته، ومن قصته مع أمه:
عاد يوماً من مدرسته، فسألته أمه عن الفلس الثاني، أين صرفة؟
 فأجابها:

«قدمتُه إلى فقير، ولكنني لم أجده في وجهه علامات الرضى».

فقالت له بسخرية، تنطوي على تعنيف:

«يا لكِ من ملك للإنسانية!
انظر إلى عينيك، لترى فيها جشعًا وطعمًا، وكيف تمكنتَ من

سرقة الآخرين!

لقد كانت تَعُدْ تصصير طفلها الصغير، في مراعاة مشاعر الفقراء، سرقة، وطعمًا، وأنانية!.

في مرة غير تلك، عاد الطفل، وقد خبأ الفلس الثاني، فقالت له:

«أنفق مثله لاحقاً على الفقراء، لأن هذا الفلس الثاني ليس لك»!.

ولقي ذات التوجيه، في مرة ثالثة، حين عاد وقد اشتري بالفلس الثاني حاجة خاصة به.

ولم تكن تنسى تعويده الإخلاص، وإخفاء الصدقة: صدقة المال، وصدقة العمل، فتقول:

«لا تدع يدك اليسرى، تعرف ما تنفقه يدك اليمنى»

وهذه ترجمة لحديث نبوي عظيم، ولمعنى بعيد، ومرام جليل، بلغة تقرب المعنى إلى طفلها.

* * *

في مشهد آخر، يجلبه عبدالستار من أثير ذكرياته، وعاطر
طفولته، قائلاً:

رأيت مرة طفليين يقتتلان، وكادت المعركة أن تضع أوزارها،
لصالح الظالم المعتمد، وانكسار المظلوم. فانطلقت مسرعاً - بلا
تردد - لأدفع عن المظلوم، حتى تمكنت من ذلك. ولكن ذلك
كلغني كثيراً من الكدمات، والجروح...
فقالت لي أمي - بعد عودتي إلى البيت -:

ليس هناك أسوأ، من أن يستخدم الإنسان القوة، التي منحه الله
عزّ وجلّ إياها، في إيهاد إنسان لم يُمنح مثل تلك القوة.
لقد كسبتُ رضى أمي، وثناءها، لأنني رفعتُ صوت مظلوم
ضعيف، حتى سمعه المجتمع.

يقول عبدالستار في أخرىات أمه، عن هذا الدرس تحديداً:

«إنه كان درساً لا تقترب منه كل عواصف النسيان». .
ويوجز أثر أمه في ذاته، وحياته بقوله:

«أمي هي سر ما أنا عليه اليوم، وهي سر الروح التشاركي الذي أحمله؛ فلها شكري»...

أكثر الناس تطوح بهم أمواج الزمن، وعوامل الكدح وأثقال
المعيشة، فتنسيهم أمهاهم وأباءهم، نسيان شكر، وبر، ودعاء.
ولكن ثلة قليلة، تظل توري من هيب حبها، وتوقيها، عوالم بر،
وفاء، وإحسان. ولا تأذن للزمن أن يشاطرها النأي.

كان يختزن في تلك الطفولة الناقصة، خصومةً مع جسمه،
وراحة فكره، ورغباته الخاصة؛ إذ إنه سُيَحْمِل جسمه أثقالاً،
وفكره هموماً، ورغباته نسياناً وإجحافاً. وكان كل أولئك عَمَّا
مُحْمِلوا في غنى، ومنه في راحة.

(١١) عاماً، هي (طفولة متوسطة) في تسمية المختصين، ولكنها عند عبد الستار، مرحلة إحسان وبُرُّ، وخفض جناح، وصبر، مع طول زمان، مؤثراً خدمة أمه على (تأمين مستقبله)، ومتابعة دراسته، ومارب صياغ.

كان القدر يُعِدُه لينطلق من بِرٌّ أمه إلى بِرٌّ أشمل، ومن خدمتها
إلى خدمة أوسع.

تُرى كم من حنان، وحب، اخترزنه عبد الستار في حنايا فؤاده!
وأين هي في قلبه: أحاديث أمه، حنانها، دفء قلبها، وصاياها،
صبرها، حنينه إليها، نحبيه، شجونه...
أين كانت نوايا (جمع نواة) كل الصبر الذي سينوء به، والرحمة
التي سينشأ عنها ما لا يخصى من خير، وإسعاد، وإعانة،
وإغاثة؟!.

ما أكثر الذين تمرض أمهاتهم، أو تُتوفى، أو تفارقهم، أو ينشئون
يتامى. ولكن كل واحد من هؤلاء يبقى رهين مأساته، وأَمْثُلُهم
طموحاً مَن يتجاوزها؛ ليرتقي درجات في السلم الاجتماعي،
وفي الاستقرار النفسي، وفي غير ذلك من الحقول. أما أن يرتقي
ذروة من المجد، تُستعظم وهي فكرة، وترهب وهي حديث
نفس!.

* * *

في تلك الآونة تعلن دولة باكستان^(١) استقلالها عن الهند، وذلك في ١٤/٨/١٩٤٧ م، الموافق ٢٧/رمضان/١٣٦٦ هـ، فتقرر عائلة (إيدهي) كلها، الانتقال إلى باكستان، طلباً للاستقرار، وانضمماً إلى توجه عام بين المسلمين الهنود آنذاك، بضرورة بروز هويتهم بعد كبت، وبإلحاح داخلي للخلاص من مواجهة مستمرة، لا يُرجى لها أن تضع أوزارها، ولو بعد حين. هذا، ولم أجد في مصادر سيرة عبد الستار، وعائلته، - التي اطلعتُ عليها - شفاءً كثيراً من التفاصيل، والروايات، حول سنة وفاة والده الحاج عبد الشكور، وهل صَحِّب العائلة في رحلة الهجرة، وهل هاجرت والدة عبد الستار، ثم توفيت، وعن أحوال إخوته، وأمثال هذه الأسئلة؟.

(١)- تقع جمهورية باكستان الإسلامية، جنوبي آسية، يقارب سكانها (٢٠٠) مليون نسمة، عاصمتها إسلام آباد. تتألف من أربعة أقاليم: البنجاب، والسندي، وخيبر بختونخوا، وبلوشستان. وهي الدولة الوحيدة التي تمتلك سلاحاً نووياً في العالم الإسلامي. يتحدث سكانها (٦) لغات رئيسية: الأوردو، والسندي، والبنجالية، والبلوشية، والبشتونية، والإنجليزية. اسم عملتها: الروبية الباكستانية. خاضت أكثر من حرب مع الهند، بسبب احتلال الهند لإقليم كشمير، أولى هذه الحروب كان عام ١٩٤٨ م. ثم انفصلت باكستان الشرقية (بنغلاديش) عن باكستان عام ١٩٧١، بدعم من الهند.

لكن تطابق تاريخ وفاة والدة عبد الستار، مع إعلان استقلال دولة باكستان عام (١٩٤٧م)، مع هجرة العائلة، يرجح أن الهجرة كانت عقب وفاتها فوراً. أو بُعدها بقليل. والله تعالى أعلم.

نعم، قررت عائلته الهجرة إلى باكستان، لما سبق، ورغبة في تحسين حالتها المعيشية، وتفاؤل لا يغدِّر أهناً.

وكثير من الآمال العابرة الحالمة، سبق أمله خطوات هجرته مع عائلته، أمله بحياة خالية من أمواج الحروب، ومن مراارة اللقمة، ومن بؤس اليأس !.

انفصلت دولة باكستان عن الهند، والعالم الإسلامي المحب، يتضرر دولة إسلامية، قوية في دينها واقتصادها، حررة في قرارها، توفر الاستقرار لأهلها، ولأشقائها، وأصدقائها. يعلم هذا علم يقين، من تابع، أوقرأ تاريخ الهند، في تلك الفترة وما قبلها...

أولى محطات الرضى

منذ نعومة أحاسيسه، كان يشعر بالحاجة ماسة، لتطوير أنظمة الخدمات الصحية، والاجتماعية، والإنسانية. وكان يرى أنها لا تصل إلى كل من يحتاجها، ولا سيما أضعف طبقات المجتمع، وأشدّها حاجة. فعزم على تحقيق طموحه، ولو كلفه ذلك أن يسير في الشوارع، يسأل الناس التبرع لسليل الخير، ومشاريعه!. إنها مهمة شاقة جدًا، ولا سيما أن صاحب الفكرة العظيمة هذه، وحامل القلب الرحيم، هو ذاته صار إلى حالة اجتماعية شديدة، بعد الهجرة.

كما كان المحيط السياسي، يشهد اضطراباً ومخاضاً، فقد عاصر عبدالستار الهند وهي تحت الاستعمار البريطاني، ثم انفصال باكستان عن الهند.

ولكن، هل عشر السيد (عبدالستار) على آماله، أو بعضها!؟. يقول ابنه فيصل في الجواب: «عشر على كل شيء سوى ذلك» ...

كلمة بلغة، لا تنتظر إياضًا.

* * *

مع استقراره في باكستان، اختار مع عائلته مدينة (كراتشي)، وقد عمل أول أمره بائعاً جائلاً، يبيع الكبريت، وأقلام الرصاص. ثم عمل مندوب مبيعات، في تجارة الملابس، في أسواق الجملة، في (كراتشي).

لم يمض على عمله هذا، سوى ستين، حتى تركه، ليحقق رغبته في خدمة الناس، ولاسيما أنه قد تفشي في تلك الأونة، وباء

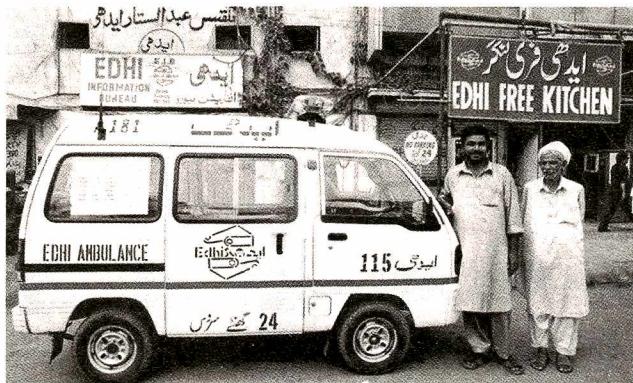


مُعْدٍ، فوضع
منضدة في
الشارع، وبدأ
يجمع الأموال
من أجل مساعدة

المصابين بالوباء⁽¹⁾، ومن أجل شراء سيارة إسعاف!.

(1) - وبالنسبة ليس صحبياً على الإطلاق، ما قالته بعض الصحف العربية، والإنجليزية، - ولعل غيرها كرر الافتراض أيضاً - من أن عبدالستار بدأ حياته متسللاً في الشوارع! ولعل سبب الوهم، هو هذه الطريقة التي بدأ بها جمع التبرعات.

ثم كَوَنَ فريقاً من طلبة الطب المتطوعين، لإسعاف المرضى،
والصابين، ونقل الأموات.



تابع الفريق الصغير إنجازاته؛ لينشئ مستوصفًا خيريًا، في حي (ميثا دار) = الفقير، في مدينة (كراتشي)، يقدم خدمة إنسانية للمنطقة المحيطة. وكان التمويل من أموال أهل الخير، الذين وثقوا بالسيد عبد الستار.

كان ذلك عام (١٩٥١)م، وكان شعار المنظمة النواة حينئذ: (Live and help live) = (عش ودع غيرك يعيش). بدأ هذا المستوصف بـ (٥٠٠٠) روبية، أي ما يعادل (١٠٠) دولار أمريكي آنذاك.

أقبل عبد الستار يعمل بإخلاص، ونشاط، وهمة، كأي فرد من أفراد المشروع الخيري الناشئ.

كان يعمل، وعيناه تطمحان لنظام أشمل، وخدمة أوسع،
ولكن مالا يدرك كله، لا يترك جلّه. ويسبب ضعف التمويل
أول الأمر، قرر مع إخوانه، أن يكون توسيع المشروع، ونمائه
من خلال ريعه الذاتي؛ تحسباً لانقطاع التمويل مستقبلاً، أو
ضعفه.

أطلق على هذا المشروع اسم (Edhi Trust) = (ثقة إيدهي).
قادساً توسيع ثقة الناس بالمؤسسة الناشئة، حتى تقدم الخدمة
على أتم وجه، فأطلق نداء ومناشدة، للمساهمة في توفير المال
اللازم، لمتطلبات المستوصف، بل لتأسيس صندوق خيري،
فاستجاب الناس لندائه، استجابة غير متوقعة، وغير متناسبة
مع العمر الزمني للمشروع، ولكنها تتناسب مع روح الرجل
الفياض، ومع طموحه الطائر.



فجمع ما يقارب (٢٠٠٠٠٠) روبيه آنذاك. وكان ذلك عام

. م ١٩٥٣

حااز مشروع (ثقة إيدهي) ثقة الناس، لما لمسوه منه، ومن إخوانه، من تفانٍ في العمل، وحسن إدارة، وقوة عزيمة، وقبل ذلك حبًّا لخدمتهم، ولتضميذ بعض آلامهم.

* * *

أولى خطوات التوسيع كانت (دور الولادة)، فقد أنشئوا هذه الدور؛ لتدعي خدمة، غير الخدمة التي يؤديها المستوصف الصحي، ولأن حاجة المجتمع، وطلب الناس، كانا في ازدياد واتساع.

في الخطوة الثانية، عملوا على توفير خدمة سيارات إسعاف طبية. مع العلم أن صعوبة أمل كهذا، كان أمراً جلياً؛ فمدينة (كراتشي)، مدينة مترامية الأطراف، يقطنها عشرة ملايين نسمة أو تزيد، في تلك المرحلة الزمنية.

ولكن المجتمع - على اختلاف شرائحة -، لم يترك الشاب (عبد الستار إيدهي) وإخوانه وحدهم، فأقبل كثير من الناس يعرضون جهودهم، وإمكانياتهم للمساعدة.

نعم، بادله المجتمع حبًا بحب، وبذلًا ببذل، ذلك لأنه تَقدَّمَ أمام الناس فَقدَّمَ الكثير بصمت، وجعل أعماله تنطق برسالته.

وهذه من الدروس القليلة، التي وصلت إلينا من تربية والده الحاج عبد الشكور رحمه الله تعالى، فقد أشربه أبوه أن التطبيق العملي هو ثمرة العلم النظري، وأن عليه أن يعتمد على نفسه، في تحقيق ما يريد.

كما أن والده قال له يومًا:

«يابني، كن حذرًا من الغرور».

* * *

وعلى ذات المنهج كانت أم عبدالستار؛ إذ أنها كانت تساعد الناس، فعالًا، قبل أن تعلم أبناءها المساعدة قولًا.

ونحن حين نكتب واصفين ثقة الناس بالرجل، وحبهم له، واستجابتهم لما يعلِّمُون من مشاريع، لا نستطيع، ولا يستطيع غيرنا، الوقوف على سر هذه الثقة، وكيف انعقدت في قلوب الناس، على اختلاف مشاربيهم، وعقوبيهم، ومراتبهم.

ولكن في الإمكان تتبع إشارات هنا وهناك، تبني عن الوسائل

السارية، بين الرجل وبين الناس المحيطين به.

من تلك الإشارات بعض ما سبق، ومنها قوله مرة:

«كان يتابني شعور داخلي، يقول: إن الفقراء والمحاجين ينادونني، يتصلون بي، يقولون: تعال خفف آلامنا».

ومنها أيضاً، العفوية التي تنظم سلك أحاديشه، وعلاقاته، وأعماله، وحياته، فقد كان بعده عن التكلف، أسلوب حياة، ومنهج تعامل.



ومنها تحليّه بحلية القائد، الذي يقود من أمام لا من خلف،

والذي يفعل قبل أن يقول. وقد امتلك هذه الشخصية القيادية
منذ نعومة شبكته الاجتماعية.

وغير بعيد عن غرضنا، ولكن عطفاً على كلمته السابقة، فإنني
أجزم أن كل الناس يتباهم هذا الشعور، ولكن أكثرهم يتخاصم
عن صوت الاستغاثة الصادر من باطنه، ثم يتشغل عنه،
ويقترب كل أسباب نسيانه، حتى ينساه حقيقة.

وأي صوت أولى بالإصغاء إليه، من صوت أعماقنا، وحديث
سرائرنا.

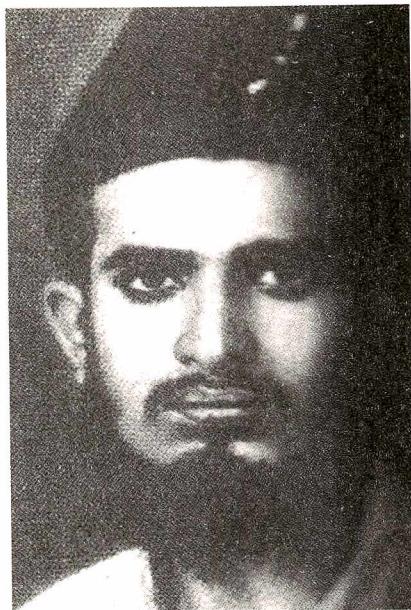
نمد أسماعنا، ونتسمّع إلى هنا، وهناك، وهنالك، ونضرـب
بإرادتنا على مسامع دواخلنا حجرًا محجورًا!!.

زواج متأخر... للطموح منه نصيب

حقق هذه الإنجازات كلها، وهو لَمْ ينزل عزِّيماً، لم يتزوج.
فالتفتت نفسهُ لبعض شأنها الخاص، ولو متأخرة، ففكر في
البحث عن زوجة، تكون لقلبه الكبير بلسماً، وله عوناً، فيها حَمَلَ
روحه القيام به.

وما أدرك ما تفعل المرأة، حين يكون الميدان ميدان علاج،
وإغاثة طفل يتيم، أو لقيط، أو مشرد...؟!.

لقد وقع اختياره على مرضة، في أحد مستوصفات مشروعه
الصحي. ولكنها لم تكن مرضة تعمل عمل موظف مكلف،
يؤدي الحد الأدنى من أثقال العمل، ويدع الإكمال، والإتقان.
لحظَ عاملة، لا تكتفي بما تكلف به، ولا تقف عند أول الخدمة،
ولا ترضى بما يرضى به أقرانها.
فلم يتردد في طلب الزواج بها...!



تزوج عبدالستار إيدهي من هذه الممرضة، وكان اسمها بلقيس بانو)، (Bilquis Bano) سنة (١٩٦٦) م، مما يعني أنه قد بلغ (٣٨) من عمره، ويعني أيضاً، أن صاحب هذا القلب، قد آلى على قلبه أن يضم في حناته، آلام المرضى، وعوز الفقراء، والأرامل، وحاجة المسحوقين، في السلام الاجتماعية الجائرة. كما أنه كان على يقين، من أن قلوب كثير من الأغنياء، وذوي القدرة، قد انصرفت عن الشعور بهؤلاء المعدبين، وعكفت على مآربها، وغضبت على ملاذها: اهتماماً، وتفكيراً، وسعياً. فقام قلبه بعض حقوق المعدبين، اهتماماً، وتفكيراً، وسعياً، نيابة

عن نسيهم، أو تعامى عنهم. بلا توكييل منهم، ولا علم.
ولو أن كل فرد في المجتمع، حمل عبء أقرب المحتاجين إليه
نسبةً، أو مجاورة، إذن، لتوزعت همومهم على قلوب كثيرة،
ولخلفَت آلام المحتاجين، وخفت معها هموم المهتمين.
يقول في حديث أجرته معه محطة BBC، عام ١٤٢٠م:

«كل واحد ملزم برعاية الآخرين، هذا هو معنى الإنسانية، فهو أن عدداً أكبر من الناس، فكروا بهذه الطريقة، حللت الكثير من المشاكل».

ولكن - ويأله الاستدراك - لم يقم بالواجب إلا أفراد نادرون، فكراهم، وثقلت معه الأحمال.

ما أشبه كلامه هذا، بكلام التابعي الجليل، أوس بن عيسى القرني^(١)
رضي الله تعالى عنه، الذي يقول:

«اللهم إني أعتذر إليك من كل كبد جائعة، وجسد عاري، وليس

لي إلا ما على ظهري، وفي بطني».

وكان إذا أمسى تصدق بما في بيته، من فضل طعام، وثياب، ثم

قال:

«اللهم مَنْ ماتْ جُوعًا فَلَا تؤاخذنِي بِهِ، وَمَنْ ماتْ عَرِبَانًا فَلَا

تؤاخذنِي بِهِ».

ويقول جابر بن زيد^(١):

«لأن أتصدق بدرهم على يتيماً، أو مسيناً، أحب إلى مِن حجة

بعد حجة الإسلام».

(١) - جابر بن زيد أبو الشعاء الأزدي، البصري، تابعي، فقيه، ثقة، صاحب عبد الله

بن عباس، رضي الله تعالى عنهما، وكان كثيراً ما يقول عن ابن عباس: «سألتُ البحر».

سمع ابن عمر، والحكم بن عمرو الغفاري، رضي الله تعالى عنهم. روى عطاء عن ابن

عباس رضي الله تعالى عندهما أنه قال:

«لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد، لأوسعهم علمًا عَمَّا في كتاب الله

تعالى». ت(٩٣) هـ.

لاغر و أن تتفق قلوب الرحماء، بإحساسها متداً الحدود،

و شعورها بجسامه المسؤولية؛ فهي تغرس من مشكاة واحدة.

ما إن تزوج السيد عبد الستار، حتى نقلَ بعض أعباء قلبه، إلى
قلب زوجته (بلقيس)، ولا سيما أنها حين قيلتُ الزواج به، إنما
قيلتُ بعد أن شاعت كثير من آثاره في المجتمع، واستقرت محبته
في قلوب الناس، وعرف أعماله القاصي والداني.

هل أحتج إلى بيان طويل، عن فروق ما بين زواج عبد الستار،
 وبين زواج شباب اليوم؟

لقد اكتنزع صدر الشاب عبد الستار خططاً يقلبها قائماً وقاعدًا،
و هموماً كان صدره عنها في غنى، لو لا حبه للمكارم، وتأميمه
الإصلاح بلا تردد.

فكانـت له خير عون، فيها توجه إليه، وما أسرع ما انخرطـت في
مشاريع زوجها، وكانـ أهم مساهماتها، القيام على أعمال
التمريض، في (دور الولادة) المذكورة.

نعم، عملـت ممرضة في المؤسسة، كـأي ممرضة فيه، ولم تترفع عن
أنخواتها المرضـات، ولا استعملـت بنفسـها عليهـن، ولا استبدـ بها
الـكـبرـ، الذي يصـيبـ أمـثالـهاـ، فيـ أمـثالـ هـذـهـ الأـحوالـ.

رزق السيد (عبدالستار إيدهي)، من زوجته (بلقيس) بأربعة

أبناء:

ابنين: فيصل، وكتاب، وبنتين: ألماس، وكبرى.

ولم تكن أسرتها الصغيرة، لتحول بينها وبين مساهماتها في متابعة
أسرتها الكبيرة، ومشاريع زوجها الذي انطلق يجري في طريق
الألف ميل، بل الآلاف...

بعد ذلك قامت برعاية (دور الولادة)، ولكن بوصفها مديرية،
لامرضة، ثم انتقلت إلى المكتب الرئيسي، في مدينة (كراتشي)-،
لتقوم بتنظيم مهمة جديدة، أدخلتها المؤسسة على مهامها، إلا
وهي:

(إيواء اللقطاء)، وهم أطفال ولدوا من علاقة غير شرعية، أو
التقطوا من مكان عام، فلم يعرف لهم آباء أو أمهات. ثم
أدخلت المؤسسة -بعد ذلك-، على مهامها، مهمة رعاية
الأطفال المشردين، وغيرهم.

انطلاق في الإنسانية

نتيجة لخبرة ليست كبيرة، ولكنها جادة صادقة، انكشفت للزوجين ثغرة عميقه القرار، سحقيقة الهوة، من إهمال، وبؤس، ومرض، وما يتواحد عن هذه الآفات اجتماعياً، ونفسياً، ومادياً، وغير ذلك. كل ذلك له تبعاته؛ فالمرض يحتاج سلسلة خدمات، ابتداء من سيارة الإسعاف، إلى متابعة العلاج، والرعاية، وأخيراً... الوفاة!.

وكذا الفقر، واليتم، والتشرد، وغير ذلك، طبقة تفتقد أقل الخدمات الاجتماعية، بل، الانسانية!.

والحديث في هذا الاتجاه لا يتنهى، ولكن بحسبنا أن نستذكر أن وفاة واحد من هذه الطبقة، هي مصيبة أخرى، تحمل بذويه؛ لافتقاده مَن يقوم بتجهيزه ودفنه، ومَن يدفع تكاليف ذلك!.

بعد انكشاف هذه الثغرة، وضح للزوجين أيضاً أن تخصص الخدمات التي تقوم بها المؤسسة، بِعِرْق دون عرق، أو بِدِين دون دين، أمر مجاف للفطرة، معاند للدين.

أي دين يقول للجائع:

اجلس لحوار في العقيدة، ولبِّ الجائع يطير نحو لقمة تُسكت
ثورة أمعائه!؟.

وأي مذهب يمتنع عن إيواء مشرد، أو لقيط، أو يتيم، حتى
يضمن انسجام مذهبه مع مذهب المُعين أو المُحسن!؟.
كما قال أحدهم:

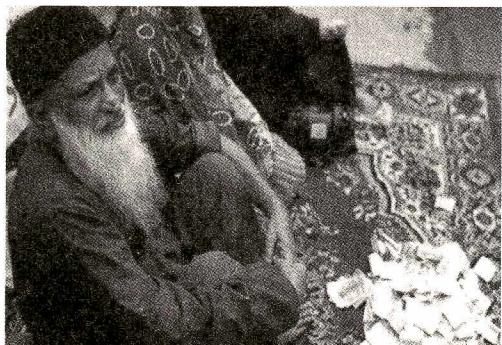
«من الظلم أن طالب المشغول بالبحث عن رغيف خبز، أو عن
فتاته، أن يتخذ موقفاً حيادياً تجاه الكعك المسمسم».
وإذا كان الدين ذاته، لا يقر الإكراه على إدخال الناس في الدين،
أفيأذن به بسلاح المسغبة، وتبريح المرض، وجنون
الاضطرار!؟.

لذا، انطلق الزوجان، في توسيع الخدمة على اختلاف أنواعها،
نحو الفقراء، كل الفقراء، الذين يحتاجون عوناً، ونحو اليتامي،
كل اليتامي، الذين فقدوا آباءهم، ونحو اللقطاء، والمسردين،
بل نحو الذين يُتوفون ولا يجدون من يقوم بتجهيزهم، ثم
دفنهم.



فـكـانـتـ المؤـسـسـةـ تـسـتـجـيـبـ لـكـلـ مـنـ طـلـبـ مـسـاعـدـتـهـاـ،ـ دـوـنـ تـرـدـدـ
وـكـانـ (ـعـبـدـ الـسـتـارـ)ـ وـاقـفـاـ،ـ فيـ وـسـطـ الـمـهـامـ،ـ يـشـارـكـ بـأـعـمالـ
المـؤـسـسـةـ بـنـفـسـهـ،ـ فـرـبـهاـ جـمـعـ تـبـرـعـاتـ أـهـلـ الـخـيـرـ،ـ وـرـبـهاـ قـامـ بـتـغـسـيلـ
الـمـوـتـىـ ..ـ

وـكـأنـهـ آلـىـ عـلـىـ قـلـبـهـ،ـ أـنـ يـعـمـلـ عـلـىـ إـيـوـاءـ النـاسـ،ـ يـتـيمـهـمـ،ـ
وـمـشـرـدـهـمـ،ـ وـكـبـيرـهـمـ.ـ (ـإـيـوـائـهـمـ)ـ فـيـ دـورـ،ـ أـوـفيـ مـلـاجـىـءـ،ـ أـوـفيـ
مـقـابـلـاـ!ـ



كـانـ كـلـمـاـ اـحـتـاجـ
أـمـوـالـاـ،ـ لـتـموـيلـ
مـشـرـوعـ،ـ أـوـ تـلـبـيةـ

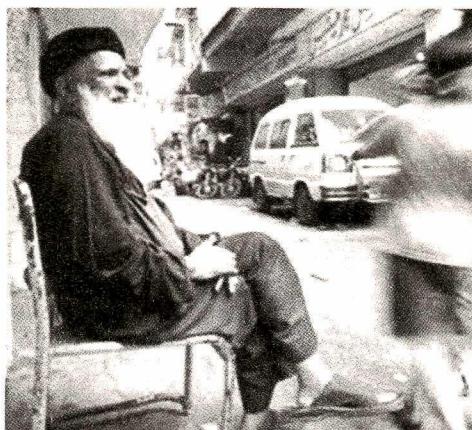
إغاثة، أو غير ذلك من أعماله الخيرية، وضع كرسيًا وجلس في أحد الشوارع، ومد أمامه قطعة قماش، أو وضع صندوقاً، فيأتيه الناس ليترعوا بما تجود به قلوبهم، دون أن يسأله أحد عن شيءٍ !.

كانوا يوقنون أنه معبر شفاف، أمين، للأموال - مهما كثرت -، يأخذ من الناس لأجل الناس.

ترى، هل كان عليه أن يضمد جراح الحروب، ونتائج الإهمال، وعقوبات الفساد، وأن يتمتص كل هذه الصدمات ؟ ولماذا لم توزع المهام، فيتحمل السياسيُّ، مهمته، والمسؤول، والموظف، والمعلم، والأب والأم، والمواطن، و...و... مهامهم ؟.

في جمع التبرعات، أقتطف من حديقته زهرة تفوح قائلة: في أحد الأحياء الميسورة، في مدينة (كراتشي)، حيث الهوة شاسعة بين الفقراء والأغنياء، كان يصدح مكبر الصوت:

«(عبد الستار إيدهي) جالس هنا، يتظاهر عاتكم».



يضع عابرو السبيل بيد الرجل ما تجود به نفوسهم، أو يلقون عليه تحية احترام، لأنّه كان وجهًا معروفاً، في باكستان عموماً، وخارجها أيضاً.

يقول في مذكراته:

«كان العمل الاجتماعي رسالتى، أردت أن (أحرره) من قبضة الأثرياء، الذين يفضلون أن يفعلوا الإحسان على أن يشاركون فى إنشاء مؤسسات اجتماعية كبيرة».

لو منحنا هذه الكلمة قليلاً من معنٍ، باحثين عن السر في حال

معظم الأغنياء، ولماذا يَقْلُون حيث تكون المشاريع الخيرية،

طويلة النفس، بعيدة الأثر، عميقه الدراسة والتأسيس؟!.

لن يطول بنا الإمعان، حتى نهتدي للجواب:

حُبُّ للعاجل من الشهرة، والمكاسب، والأرباح الأخرى، التي
تعود لتصب في حساباتهم وأرصدتهم.

لا يصح التعميم، ولكن شيوخ الظاهره، يُحتمّ تحليلها بلا
مواربة، ولا مداهنة.

والإخلاص - ذلك السر الخفي - إذا استنار به الباطن، أزاح
هذه الرعنونات، والمارب العاجلة، وأسقط الخلق كلهم من
حساب المخلص، فانكشفوا بصيرته، بلا حول، ولا قوة، ولا
ضرر، ولا نفع. وهذا يعارض - لا محالة - مع طلب رضى
الناس، وانتظار مدحهم، أو خوف قدحهم.

ثم إذا صوينا النظر في جانب ثان، ألفينا أن المشاريع ذات النفع
الدائم، والريع المتصل، تَصِلُ بالمحاجين - ولو بعد حين - إلى
مستوى الاكتفاء المادي، وبمستوى أعلى إلى تحقيق الاستغاثة
النفسية.

وهذا - وحده - مطلب ريازي، إنساني، فطري، مجتمعي.

وسينتقل هؤلاء المحاجون لاحقاً، إلى درجة اليد العليا في مجتمعهم، وبالتالي تتضاءل الطبقة المعدمة، حتى تخفي أو تكاد في حين أن المساعدات السريعة، أو المباشرة، لا ترفعهم إلى هذا المطلب، بل تثبتهم في مستواهم نظرياً، مما يعني انحدارهم فعلياً، في هوة لا تنتهي من العوز، وال الحاجة؛ لاتساع قائمة الحاجات، وسيرورة البشر إلى خريف أعمارهم.

والمعونة المباشرة - وهي تكرر -، توقف في كل مرة، شعوراً يغضبه الله تعالى، ويعغضه قابض الذل، والاستعلاء.

لِمَ لَا يُنْحِي الأَغْنِيَاءُ مَا أَقْدَرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَالْمَنْوَحُ مِنْ الْعِزَّةِ بِالْعَرْشِ الْعَالِيِّ؟!

لِمَ لَا يُؤْسِسَ الْغَنِيُّ لِلْفَقِيرِ مَشْرُوعًا يَعْتَاشُ مِنْهُ، مَحَلًا يَتَجَرُّ فِيهِ،
أَوْ يَتَحَرَّفُ فِيهِ حِرْفَةً يَجِدُهَا، أَوْ يَقْدِمُ لِهِ سِيَارَةً، أَوْ مَحْرَاثًا، أَوْ
حَيْوَانًا يَدْرُرُ أَوْ يَعْمَلُ، أَوْ شَجَرَةً تَثْمِرُ، أَوْ نَحْوًا مِنْ هَذِهِ
الْأَمْوَرِ؟!.

أَمَا إِبْقاؤُهُ تَحْتَ خَطِ الْذَّلِّ، وَالْعَصْفِ، فَلَيْسَ مِنَ الْكَرَامَةِ
الْإِنْسَانِيَّةِ فِي شَيْءٍ.

وَلَنْ تَجِدَ فِي التَّشْرِيفِ الإِسْلَامِيِّ، شَيْئًا يُشَجِّعُ هَذَا الاتِّجَاهَ الْبَتَّةَ،

وهذه فريضة الزكاة العظيمة، تُرشدنا - فيما تُرشد - إلى كفاية الفقير، والمسكين، وقضاء دَيْنِ المدين بالغاً ما بلغ، ونظائر ذلك مما لا يدخل تحت حصر. كل ذلك حتى لا يعود المحتاج سيرته الأولى، بل ليرتقي مراقي الباذلين، المنفقين.

وفي هذا من السعادة النفسية، والرضا القلبي، والسمو الروحي، ما لا يعرفه إلا من تسنم درجة السخاء، وتنسم روحه عبق الجود.

بل إن الإسلام لا يأذن ببناء المساجد - على شرفها، وشرف الإسهام في أي شيء فيها - من أموال الزكاة؛ ذلك لأن الزكاة - وهي فرض مُحَمَّمٌ - إنما تُصرفُ للأحوج فالأحوج، وبناء الإنسان مقدم على بناء المساجد.

أعود - وقد تشعب بي السخط من أحوال أكثر الأغنياء - إلى السيد عبدالستار إيدهي. فكثيراً ما كان يقود سيارة الإسعاف بنفسه، على مدار الساعة، متقدلاً من حي إلى حي، ومن شارع إلى شارع، باحثاً عن مشرد تَسْيِه محیطه، أو جريح، أو مريض، أو أرملة، أو عجوز، أو مُقعد، أو طفل في حاوية قهامة، أو قريباً

منها...

كان إذا عشر على بعض هؤلاء، أسرع به إلى مركز الإغاثة الصحي، فعالجه ثم أعاده إلى منزله. إذا كان وضعه الصحي، لا يحتم بقاءه في المركز الصحي.

إنه طراز مذهلٍ من التفاني في الخدمة، ووحدتها سيارة الإسعاف التي قادها السيد (عبد الستار)!

كان في عداء دائم مع الشهرة، والإعلام. وفي تصالح وثيق مع إخفاء المساعدات، وحفظ كرامة المحتاجين وعزتهم.

وقد جَرَتْ عادت بعض المحسنين، أن يتبرعوا بمنشأة، أو أدواتها، أو لوازمهما، أو كل ذلك، ثم يتبعوا الخدمة عن بعد أو قرب، وربما تركوا المتابعة تماماً. أما أن يؤسس رجل مؤسسة صحية خيرية، ثم يقود بنفسه سيارة إسعاف تابعة للمؤسسة، بحثاً عن إنسان يحتاج مساعدة، ولكنه لا يقدر على الحضور إلى المركز، ولا يجد مُعيناً على الحضور، بل، ولا يجد من يُبلغ المركز حاجته!!، فهذا مستوى لا يجود به الدهر إلا قليلاً... نادرًا.

رسـل الله الكـرام - عـلـيـهـم صـلـوـات الله تعـالـى وسـلـامـاتـهـ، هـمـ

أوائل مَن تخترق أحاسيسهم وأرواحهم حدود الأماكنة
والأزمنة، التي يعيشون فيها، أو تضم أجسامهم.

تطوف قلوبهم، المفعمة رأفة، ورحمة، ورقة، بكل معذب،
وفقير، ومسكين، ويتيم، وبكل المحاویج، والبؤساء.

قد تتحرك عاطفة بعض الناس، إذا جمعه مكان وزمان، بسائل،
أو ذي حاجة. لكن الرسـل الـكـرام - عليهم الصـلاة والـسـلام -،
يتجاوزون بشعورهم هذا السـائل، أو المـحتاج، إلى ذي حاجة
أشد منه، أو مـساـوية، أو أـفـلـ، ثم عـرـضـ له ما منـعـه، وحال بينـهـ
وبيـنـ سـؤـالـ النـاسـ، أـلـاـ وـهـوـ: كـسوـةـ حـيـاءـ، وـحـلـيـةـ عـفـةـ. وـهـذاـ
يعـنيـ أـنـ يـخـفـيـ عنـ النـاسـ مـظـاهـرـ حاجـاتـهـ، ويـصـطـنـعـ حـيـلـةـ إـثـرـ
حـيـلـةـ، خـشـيـةـ اـطـلـاعـ النـاسـ عـلـىـ حـقـيقـةـ أـحـوـالـهـ، لـثـلـاـ يـنـكـشـفـ
فـقـرـهـ، وـضـعـفـهـ.

هـؤـلـاءـ، هـمـ الـذـينـ يـذـكـرـ بـهـمـ رـسـلـ اللهـ تـعـالـىـ الـكـرامـ، وـيـرـشـدـونـ
إـلـىـ الـبـحـثـ عـنـهـمـ، وـالـتـفـطـنـ لـهـمـ.

يـقـولـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـيـهـ وـعـلـىـ آـلـهـ وـصـحـبـهـ وـسـلـمـ :
«لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمَرَّدُ وَالتَّمَرَّتَانِ، وَلَا اللَّقْمَةُ
وَاللَّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ، وَلَا يُعْرَفُ مَكَانُهُ

فـ يـ عـطـيـ

وفي رواية: «وَلَا يَعْلَمُ النّاسُ حَاجَتُهُ فَيُتَصَدِّقُ عَلَيْهِ».

وفي رواية: «وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيُتَصَدِّقُ عَلَيْهِ».

وفي رواية: «إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ . وَ اقْرَأُوهُ إِنْ شِئْتُمْ: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَحْافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]».

يفطن أكثر الناس لسائل يُذَكِّرُهم هو بنفسه، أو حاله الشارح.

وربما كانت حاجته حقيقة، وربما كانت كاذبة؛ وإنما ذابت

كسوة الحياة عن وجهه، وسقط جدار التعفف من قلبه، فهانت

عليه المسألة، وسهل عليه طريق الاستجاء.

هذه الآثار، والأعمال، والخدمات، بدأت تشيع في مدينة

كراتشي، ثم في المجتمع الباكستاني عموماً، حتى لمس كثير من

الناس آثارها، ولا مست هي حاجاتهم، ومواطن ضعفهم. مع

عمق الشرخ، واتساع رقعة العمل ...

ومن ثم أطلق عليه الناس ألقاباً متعددة:

فلقبوه بـ:(ملـاكـ الرـحـمةـ) = (Angel of Mercy)

ولقبوه بـ:(ملك الإنسـانيةـ) = (King of Humanity)

ولقبوه بـ:(أـبـيـ اليـتـامـيـ) = (The Father of Orphans)

ولقبوه بـ: (أبي المساكين) = (The Father of Poor).

ولقبوه بـ: (أغنى رجل فقير)

(The Richest Poor Man) =

ولقبوه بـ: (القديس الحي) = (A Living Saint).

ولقبوه بـ: (البطل الملائكة) = (Angel Hero).

أما عامة الناس فكانوا يلقبونه بـ: (مولانا Edhi).

كما لقب بـ (الأب تيريزا) لـ (Teresa of Pakistan)، وبـ: (Father Teresa) =

باكستان).^(١)

ومن أسباب ذلك أن عدداً من الكتابات الغربية، صحفاً أو كتباً، التي كتبت عن السيد عبدالستار، كان كتابها يدينون

(١) - (تيريزا) راهبة نصرانية كاثوليكية، أصوتها ألبانية، ولدت في مقدونيا. كانت راهبة أول أمرها، ثم تركت الرهبنة إلى مساعدة الأطفال، والمجذومين، والمنكوبين، وغيرهم. عملت في الهند طويلاً، في (كلكتا) خصيصاً، وفي باكستان، وفي بنغلادش، وفي أفريقيا، وفي دول كثيرة أخرى.

عبرت في أكثر من موقف، عن قلق ينتاب إيمانها، وخالفت بعض العقائد التي يؤمن بها أهل دينها، وكانت هي تؤمن بها سابقاً.

حصلت على جائزة نوبل للسلام (١٩٧٩) م، توفيت في (كلكتا) عام (١٩٩٧) م، عن (٨٧) عاماً.

بالنصرانية، أو يميلون إليها تقليداً وتعصباً، لا تديننا سلوكاً.
فلذلك شاع هذا اللقب في كتاباتهم، ثم قلدتهم بعض الكتاب
ال المسلمين الباكستانيين، باللغة الأوردية، والإنكليزية! .
وربما كان من الأسباب أيضاً، حصول زوجته (بلقيس) على
جائزة (الأم تيريزا).

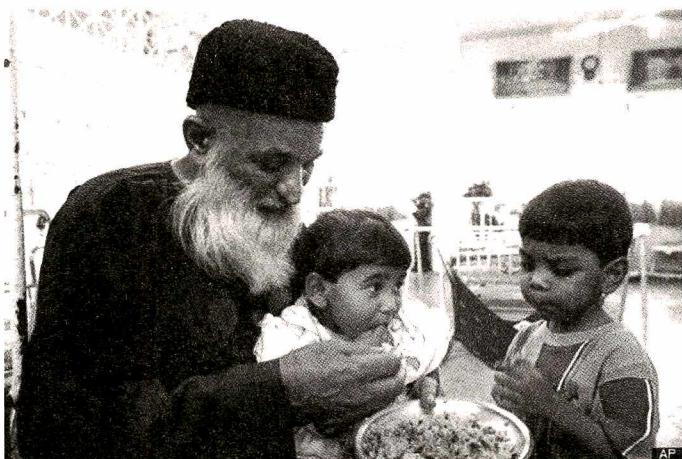
مشاريع بلا هواة

استبان لنا مما سبق، ازدحام الأعمال التي يقوم بها السيد (عبد الستار إيدهي) شخصياً، وكثرة الخدمات التي تقدمها المؤسسة التي ولدت على يده، على اختلاف فروعها، واتساع جغرافية الخدمات مع مرور الزمن.

لكن كل هذا، لم يكن ليُشعر (عبد الستار)، بأنه قد أرضى ضميره، أو حقق طموحه. كان يستغل الفرصة، تلو الفرصة، والفرصة التي تسنح مع أختها، لا تلوها؛ ليخطط مع المخلصين، الذين آزروه، وساعدوه، لمشروع جديد، وخدمة أخرى !!.

هذه المرة، كانت الفكرة إنشاء مراكز لرعاية اليتامي، وللعناية بالمعاقين عقلياً، ولإيواء المشردين.

أطلق على هذا المشروع اسم (بيوت إيدهي).



AP

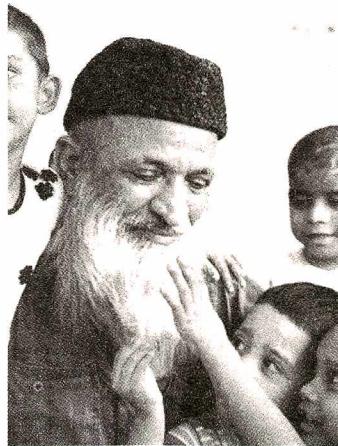
فالطفولة وحدها، ضعف، وحاجة، فكيف إذا انضم إليها يٰتم،
وفقر، وإعاقة، وتشريد؟!...

لقد طبع الله تعالى الحكيم (عبدالستار)، على حب الطفولة،
فكانت الابتسامة لا تفارق محياه، حين يخدم الأطفال، واليٰتمى،
واللقطاء. كنت ترى رجلاً قصيراً القامة، ذا لحية، يلاعب طفلاً،
ويمازح ثانياً، ويساعد ثالثاً، ويطعم رابعاً.

كان صوت ضحكات الأطفال البريئة، أحب الأغاريد إلى قلبه،
وأعزب الموسيقا في سمعه.

في دور الرعاية (بيوت إيدهي)، يتلقّف حوله الأطفال إذا وقف،
ويترافقون نحوه إذا أقبل، الأطفال الذين كانوا قبل إيوائهم،
مشردين، أو لقطاء، أو يٰتمى -، وينادونه بحب وبراءة:

. أي «اجد»، «Na na»



ي زورهم بانتظام، يربت على قلوبهم، يتابع دراستهم، يستمع
لقصصهم، يحاور معلميهم ...

وأكثر زيارة كان يهتم بها، هي زيارة المعاقين عقلياً، يجمعهم كل
يوم جمعة، بعد أداء الصلاة، في ساحة المبنى السكني،
ويهاز حهم، ويلأطفهم، ويعتنى بهم ...

كان مشروع (بيوت إيدهي)، في تلك الأونة المبكرة، عبارة عن
منازل خصصة للأصناف المذكورة، موزعة على دولة باكستان،
(٧) منها في مدينة (كراتشي) وحدها.

ثم توسيع الخدمات، فأقامت المؤسسة مدارس للتعليم، ودوراً للتأهيل لمدمني المخدرات، ودوراً للتأهيل للمتسولين. وكان هذا المشروع الأخير، تشجيعاً من السيد عبد الستار للحكومة، حين اتخذت قراراً بإنهاء ظاهرة التسول، آنذاك. كما كانت المؤسسة تقييم بين حين وآخر - حسب الحاجة، والمناسبة - موائد مجانية، للعاطلين عن العمل، والقراء، وغيرهم. ومن مشاريع المؤسسة، إقامة مراكز خاصة للرعاية الاجتماعية للنساء المسنات، في عدد من المدن الباكستانية.

ومن تلك المشاريع الناجعة، (مشروع إيدهي للخمسين كيلومتر):

أُريدَ من تنفيذ هذا المشروع تحقيق أغراض متعددة، مِن ذلك: - تقديم الخدمات الضرورية والأساسية، لسكان الريف والمدينة، مِن توفير علاج للقراء، والمرضى، ودواء، وغير ذلك مِن أساسيات وضروريات.

- تخفيف الآثار الكارثية لحوادث السير، وإنقاذ حياة المسافرين المصابين في حوادث الطرقات الداخلية والخارجية، لكل مناطق باكستان؛ فقد كانت حوادث السير، وعلى رأسها حوادث القطارات، تكلف أبهظ الأثمان البشرية، في تلك الآونة. فضلاً عن أثمان أخرى.

- تدريب نساء المنطقة، التي يقام فيها مستشفى، على فنون التمريض وخصوصاً إسعاف حالات الولادة المتعرّضة. اعتمدت الفكرة التخطيطية، لهذا المشروع الضخم على بناء مستشفيات صغيرة، سعة كل منها (٥٠) سريراً. يقدم المستشفى الواحد منها، خدماته لمسافة (٣٠) كيلومتر بداية، بلغت الكلفة المالية - إبان الشروع - لبناء (١٢٥) مركزاً، (١٩٥) مليون روبية، وبلغت كلفة (٢١) مستشفى سعة (٥٠) سريراً، (١٠٥) مليون روبية. أما مصاريف التشغيل، فبلغت - تقديراً - (١٥٠) مليون روبية، في السنوات الأولى.

ولم تسعفني المصادر، في معرفة ما آل إليه المشروع بعد ذلك. والمرجو أن يكون قد بلغ مرحلة الإنجاز التام، مؤدياً خدماته

الخليلية.



وبالمناسبة، فإن طموح عبدالستار الإصلاحي، لم يقف عند الإسعاف الصحي، والإغاثة، والرعاية، المهام التي نهضت بها منظمة إيدهي.

يبوح مرة كاشفاً عن طموح حقق بعضه، وعجز عن بعض آخر:

«كان طموحي يتوقف إلى بناء مصانع، يعمل فيها الناس، لتومن لهم مصدر دخل، كما كنت أطمح لبناء مستشفيات تعالج المرضى، وتتدريب الراغبين على العمل في مجالها».

أدهش الناس ما شاهدوه من أعماله الإغاثية، والصحية،
والإنسانية، وتحدثوا عن عميم نفعها - داخل باكستان
وخارجها -، فكيف لو عرفوا ما انطوت عليه عزيمته، وما بني
لهم في فكره، وما رسم في خططه، من مصانع، ومشاريع
ترفعهم إلى سعة في عيشهم، أو كفاية عن مذلة.

آخر آندر

للناس، مقاييس للعظمة، وشروط للاذن بدخول ساحات
الحب في جنبات قلوبهم، وكلمات سر تطلب قبل احتلال شيءٍ
من ودهم، وسرهم، ولا سيما الفقراء، وأصحاب الحاجات،
فهؤلاء إنما تتجه مناظيرهم، نحوَ مَن يقتربُ مِنْ هُمْ مِنْهم،
وآلامهم. ودرجاتُ القرب متفاوتةً جداً.

لكن... أن يُفرَغ إنسانُ قلبه، وبدنه، لألمٍ غيره، ويحيا مكافحًا في هذه السبيل، فإن هذا قرب لا مزيد عليه. وإن إذا خُدِعَ كثير من الناس، بمن يَدْعُى مواساة الفقراء، واليتامى، والمرضى، فإن الفقراء أنفسهم، لا يُخدَعون، وكذلك اليتامى، والمرضى، وكل ذي حاجة.

إنهم يرمون الكلام المُعْسَلَ الرقيق، في سلال النسيان، إذا خلا
من أثر في واقعهم...
ويحذفون الخطابات المُصَوَّرَة، والمسموعة، إذا لم تُضَمَّدْ
جراحَهم، ولم تكُسْ عارِيهِمْ، ولم تطعم جائِعَهُمْ.

هل هؤلاء الفارغون المخادعون موجودون؟!
بل، ما أكثرهم، اتخذوا من قضية العمل الخيري، سلّمًا إلى
رغباتهم، وشهواتهم.
ومكمن التسلق، والتدليس، هو ملامسة جوانب العطف،
والرقبة، في استثارة المترعين، وتحريك مواطن الإنسانية،
وإشعارهم بالفقر، واليتم، والمرض، والألم.

فأين (عبد الستار إيدهي) من كل هذا؟
لقد اختار طريقاً شاقاً، يختلف عن طريق من يقول، ولا يفعل،
ويخطب، ثم ينام على الأرياش، ويأكل أطابق الطعام، ويستقل
مراكب الرفانينة، ومواكب التعظيم.
اختار (عبد الستار)، أن يعيش قريباً من أحباب فؤاده، نذر
حياته لمحاولة إسعادهم، وتخفييف معاناتهم.

- ١ - فكان قريباً بقلبه منهم، والقلوب هي محطة القرب
والبعد، دون الأफاق.
- ٢ - وكان قريباً بمنزله؛ فقد سكن شقة، من غرفتين، لا
أكثر. ملاصقة للمركز الخيري الإغاثي، الذي أسسه.

٣- وكان قريراً بأسلوب حياته؛ فلم يترفه، ولم يترفع في معيشته، ولا في نفسه، عن هؤلاء الذين يخدمهم، ويحاورونه.

عاش حياة متواضعة، لا يرضي بها إلا ذو همة عالية، وعزيمة لا تعرف الضعف، ولا تستخدي أمام مطالب الجسد، التي لا تنتهي، إلا بمقدار ترضى به الإنسانية والديانة، وبمقدار ما يمد الجسد؛ ليجدد نشاطه، وعطاءه، وخدمته.

هذا، ولم يكن في شأنه الخاص مستفيداً من كل أعماله، وخدماته، ومشاريعه.

بل كان يعتاش على راتب حكومي، كان يصرف له، ولم يقبض راتباً واحداً من كل الأعمال الخيرية التي أشرف عليها، لا هو، ولا زوجته (بلقيس)!. وسيأتي الحديث عن زوجته أيضاً، بشيء من تفصيل.

كانت الشهرة تتبعه قائماً وقاعدًا، وكان يهرب منها جهد استطاعته. ولكن قضية الشهرة ليست ملگاً لصاحبها، فطار

اسمه في مدينته، وما حولها. وترنمت الألسنة باسم (إيدهي)،
وبلغ في النفوس منزلة من الإجلال، والاحترام، لم يرتفع إلى
شاؤها كثيرون في عصره، على اختلاف قدراتهم، ومناصبهم.
فعقب أريج اسمه في جنبات كل بيت، واعتقدت فيه الولاية،
والخصوصية، والقداسة، والزهادة.
بل نتج عن ذلك، أنه كان ضيف شرف، لكثير من المناسبات
الاجتماعية.

إن فخ الشهرة إذا استقر في رأس إنسان، لا يرضى أن يجلس
وحيداً فيه، بل لا بد أن يصطحب معه كباراً، وإعجاباً بالرأي،
واستعلاء، وغير ذلك من سلسلة من الأدواء، متصل بعضها
بعض.

ورغم دفعه الشهرة قدر استطاعته، ولكنها كانت في اتساع
وازدياد.

حتى دعاه ذلك في مرحلة ما، للاعتذار عن حضور المناسبات؛
فقال في تصريح صحفي سنة (١٩٩١) م:

«أريد ألا يدعوني الناسُ لحضور مناسباتهم الاجتماعية،
وحفلات الافتتاح؛ لأن في ذلك إضاعة لوقت نذرته خدمة
مجتمعي».

في تضاعيف هذه الكلمة، دروس لطلاب الحكماء، وصناع
المعروف، لاغتنام الأوقات، وتحميلها أكبر الأقدار من أعمال
الخير، وصنوف المبرات.

ثم للحقيقة أقول:

إن عبدالستار إيدهي نشأ نشأة خاصة، فذاق مرارة الحرمان في
نفسه، وألام المرض في أمه، ولم يحظ بما حظي به أقرانه، من
علم، واستقرار، وراحة، بل، ومن طفولة كاملة.
لم يكن عالماً، ولا سياسياً، ولا كاتباً، ولا خطيباً، ولا مخترعاً،
ولا فقيهاً. ولعل ضيق نظره الفقهى، يُعمر في جحائل حسناته،
ويُعتذر لقصور بصره في هذا الجانب مغاليق خير فتح أبوابها،
وسماوات إنقاذه قَرَبَ مصاعدتها.

ولكن، ما عذرَ مَنْ تدلّ علمه وتهدل، بلا ثمرة يانعة يقطفها

الناس بإحدى الحواس، ولا ترى بالمجاهر الدقيقة؟!.

إنه رجل نشأ كما تنشأ أضعف حلقات المجتمع، ولم يهياً لهذه المهمة الجليلة، ولم يوضع في المدارس الأجنبية، التي يدرس فيها أبناء علية المجتمع، ولم تُستقدم له المربيات، ولا أحضر له الطباخون، ولا المدربون، ولم ... ولم ...

هذه النسأة التي شُحنت بوخذ الألم، واحتزنت مراة العجز، وعاشت بؤس الفقر، وعضة الجوع، أكرم الله تعالى صاحبها بذهن متقد، وقلب أبيض، وحدس لا يحجبه حاجة من أمامه، حتى يتجاوزها إلى توقع حاجة لم تصل إلى سمعه، أو علمه، ورهافةٌ تستشعر هموم الناس وأمراضهم.

وه هنا نقطة جديرة بالتوقف ملِيّاً، ينبغي أن يتوقف للتمعن فيها أرباب المسؤولية على اختلاف تخصصاتهم، ألا وهي:
ما المهمة المرجوة من سلام التعليم؟
ماذا يتَّغيَّـا منها القائمون عليها؟

لاشك أن الجواب معروف حاضر، ولكن نظرة عامة، من مختص وغير مختص، سترجع بنتيجة تقول:

إن كثيراً من المتعلمين، كلما ازدادت علـمـاً، ازدادت الفجوة بينهم وبين سلامـةـ الفطرـةـ، وكـأنـهـ يـشـقـونـ طـرـيقـاـ يـطـمـسـ نـقـاءـ الفـطـرـةـ، وـيـضـعـفـ حـيـاةـ القـلـبـ!.

تنـقـقـ الدـوـلـ الـكـثـيرـ الـكـثـيرـ، لـتـعـلـيمـ أـبـنـائـهـ، (كـماـ يـقالـ)، ثـمـ تـصـبـ أـكـثـرـ النـتـائـجـ فيـ غـيـرـ الغـايـاتـ المـرـجـوـةـ.

تـخـرـجـ المـدـارـسـ التـقـلـيـدـيـةـ مـخـازـنـ بـشـرـيـةـ، يـغـنـيـ عـنـهـ بـعـضـ ما قـدـمـتـهـ التـقـنـيـةـ الـحـدـيـثـةـ، وـلـاـ تـخـرـجـ مـتـعـلـمـينـ رـبـانـيـنـ، يـغـذـونـ بـالـعـلـمـ أـرـواـحـهـ، وـيـقـبـسـونـ مـنـهـ نـبـضاـ لـقـلـوـبـهـ.

حتـىـ اـنـتـكـسـ الـأـمـرـ، وـصـارـتـ التـقـافـةـ، وـالـعـلـمـ، تعـنيـ أنـ المـتـصـفـ بـهـ، مـفـصـومـ عـنـ وـاقـعـهـ، مـيـتـ قـلـبـهـ، بـارـدـ أـثـرـهـ. بلـ صـارـتـ تـمـنـحـهـ صـلـفاـ وـإـعـجاـباـ بـمـاـ اـتـصـفـ بـهـ. وـلـوـ لمـ يـقـدـمـ شـيـئـاـ!.

قـرـيبـاـ مـنـ هـذـاـ المـضـمارـ، يـصـرـحـ عـبدـ الـسـتـارـ، مـسـتـاءـ مـنـ التـعـلـيمـ الـمـاعـرـقـ وـثـقـافـتـهـ قـائـلاـ:

«نعم أـصـبـحـ النـاسـ مـثـقـفـينـ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـصـبـحـواـ إـنـسـانـيـنـ!».

فـهـلـ هـذـاـ أـنـشـيـتـ الـمـعـاهـدـ، وـالـمـدـارـسـ، وـالـجـامـعـاتـ؟.

ترى لو تقدم السيد (عبد الستار إيدهي) بسيرته الذاتية (CV)،
إلى مؤسسة ما، وفي الأسطر الأولى منها، أنه لم يكمل تعليم
المرحلة التأسيسية، ماذا يكون الموقف؟.

وكيف لو تقدم معه آخرون، يحملون أوراقاً وشهادات؟
لاشك أنه لن يحظى بجواب، وسيحظى الآخرون بالقبول،
والترحيب.

مع أن أوراقهم يابسة، وما أكثر ما تثبت الشهادات استعداد
حامليها لوظيفة تؤخر ولا تقدم، أو تفرز نسخاً متطابقة!.
إنهم يتخرجون أضيق صدوراً، وأعتمم أفكاراً، وأقل إسهاماً في
إنهاض مجتمعاتهم!.

في حين أن عبد الستار الذي لم يكمل مسيرة تعليمه الأساسيّ،
ظل يحتضن في فكره ميلاً طاغياً، إلى نقاشات عقدية، سادت
المجتمع الباكستاني، إبان الستينيات من القرن العشرين. وكان
يرى فيها توسيعاً لأجنواء حرية الرأي، وتدرीباً على سعة
الصدر، وغير هذا من ثمرات كثيرات.

المرأة في مؤسسة (إيدهي)

لم تقم مؤسسة (إيدهي) بكل مهامها، على أكتاف الرجل وحده، بل كانت المرأة عضيدة له، وشريكًا مهمًا في العمل. وكان السيد (عبدالستار إيدهي)، يدفع باتجاه إشراك المرأة بقوة وثقة، كاسرًا بذلك خصومة مصطنعة، وجذلًا طويلاً؛ فالعمل الإغاثي، ومهام رعاية اليتامي، واللقطاء، والمرضى وغيرهم، هذا العمل بالذات هو للمرأة أنساب، ويتكون منها أرفق، فضلاً عن أن بعض هذه الأعمال تتفوق فيها المرأة على الرجل، بلا نسبة بينهما؛ لما جُبلت عليه من لطف، ورقه، وحنان.

كانت مجالات مساحات المرأة متنوعة؛ مما جعل المؤسسة تنبع في مهامها، وتحقق قفزات تصاعدية في مستوى الخدمة. أليس المجتمع الإنساني، قائماً على الجنسين: الرجل والمرأة، فكيف تقوم أعمال الخير، والإغاثة، والرعاية في مؤسسة اعتناداً على جنس واحد فقط؟!

أليس في ذوي الحاجات - على اختلاف حاجاتهم - نساء،

فكيف لا يكون في القائمين على رعايتهم نساء؟!.

المـرأـةـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـمـرأـةـ،ـ وـأـعـرـفـ بـحـاجـتـهـاـ وـرـغـبـتـهـاـ.

لقد اكتشف العمل اليومي قدرات عالية في النساء المساهمات،

فترأسنَّ كثيـراً من مراكـزـ (دور الولادة والأـمـومةـ)،ـ وـعـدـدـاـ منـ

المـسـتوـصـفـاتـ الصـحـيـةـ،ـ وـمـكـاتـبـ الـعـمـلـ.

بل إن حـبـ بعضـهنـ لـلـمـؤـسـسـةـ،ـ وـتـفـانـيـهـنـ فـيـ الخـدـمـةـ،ـ دـفـعـهـنـ

لـلـقـيـامـ بـجـمـعـ التـبـرـعـاتـ بـأـنـفـسـهـنـ،ـ قـدـرـ اـسـطـاعـتـهـنـ،ـ وـفيـ

مـحـيطـهـنـ.

كـانـتـ الـمـؤـسـسـةـ تـنـظـمـ لـهـنـ دـورـاتـ فـيـ التـمـريـضـ،ـ وـفـيـ العـنـايـةـ

بـالـأـطـفالـ،ـ وـالـمـرـضـىـ،ـ وـفـيـ تـجهـيزـ النـسـاءـ بـعـدـ الـوـفـاةـ،ـ مـنـ تـغـسـيلـ،ـ

وـتـكـفـينـ،ـ وـنـحـوـ ذـلـكـ.



وفي أحيان كثيرة، يحصلن على تعليم مناسب، يرتقي بهن علمياً، وثقافياً، وفيما.

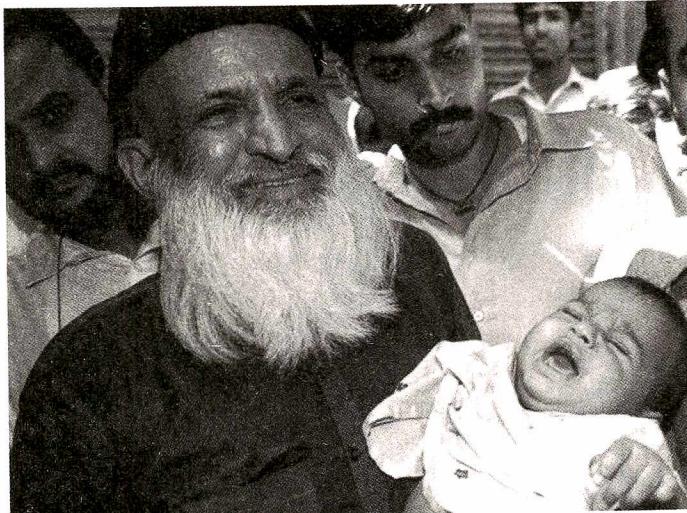
وبالمناسبة، لا يمكن وضع أي عمل في الميزان، حتى يعرف ظرفه الزمني والمكانى، بدقة بالغة، وحياداً أبلغ، بل، وحتى يعرف إنسان هذين الظرفين؛ فرب حسنة لا يلتفت إليها في مجتمع، ترتقي في المجتمع آخر إلى درجة عالية من درجات الإحسان والعطاء، وكذا السيئة، تنزل في ظرف آخر إلى مستوى جريمة منكرة!.

بعد هذا، يمكن أن ندرك معنى تشجيع عمل المرأة في دور الأئمة، والولادة، وفي مراكز (إيدهي)، ومستوصفاتها عموماً. فإذا علمنا أن فئات كثيرة في المجتمع الباكستاني، وبعض المجتمعات القرية والبعيدة، تمنع المرأة من العمل، كما تمنعها من الميراث. وتمنعها من الخروج من البيت، كما تمنعها من المدرسة، والجامعة، والعلم! بل إن في هذه المجتمعات، من يسعى لمنعها من الحياة أيضاً، إن

استطاع!

ولتعلم مدى فداحة المصيبة، وعمق الهوة التي بلغتها بعض
فئات المجتمع الباكستاني، وغيره من مجتمعات تشاركه ذات
المصيبة، في تلك الآونة، - لتعلم هذا- اقرأ هذه العبارة التي
كان يكتبها السيد عبدالستار إيدهي على أسرّة أطفال المهد،
التي كان يزرعها في أماكن كثيرة، حتى الشوارع كان لها نصيب
من تلك الأسرّة، كان يكتب عليها باللغتين الانكليزية،
والأوردو:

«لا تقتل... دع الطفل يحيا في مهده»



وكان نسبه الإناث من اللقطاء، ومن المؤودين تصل إلى نسبة ٩٠٪.

في هذا المجتمع، فتح عبد الستار لهن الأبواب. وقد نلن حظهن من عناية مراكز (إيدهي)، فتياتٌ، ونساء، هربن من بيوت، يذقن فيها ألواناً من الاضطهاد، والإذلال، والتعنيف.

في هذه الظروف، بل، وفي أقسى منها، كان هذا الموقف من عبد الستار، الداعم لعملها، وحريتها، وإخراجها من سجن العادات. مع أن فئة من هؤلاء كانوا، وما زالوا، يلصقون خطاياهم بالدين!.

فكان للبنات أباً رفيقاً عطوفاً، وللنساء أخاً ناصحاً.

أخلص من هذا:

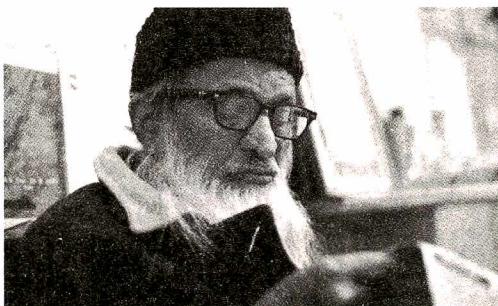
إن التستر بالدين في قضية خلافية، أو لها عدّة أحوال، ينكشف سريعاً، في قضية لا خلاف فيها، بل يأمر بها الدين، ويحيث عليها حثاً مؤكداً.

وقد أكد كثير من الباحثين الاجتماعيين، أن وضع المرأة في المجتمع ما، يلخص كل مآذق ذلك المجتمع وإخفاقاته، كما يبرز نجاحاته.

وما أكثر الصراعات الاجتماعية، التي تفضحها علاقة رجال المجتمع بنسائهم!.

في هذه النقطة - موضوع اضطهاد المرأة - أجد صدىً لمقالات السيد عبد الستار في مناصب فكره، و اختياراته، وغوص مشاعره.

فقدقرأ كثيراً من الكتب التي توافق هواه، وتعضد فكرته.



ويحدثنا عبد الستار عن بالغ تأثره برواية (الأم)، للكاتب الروسي (مكسيم غوركي).

لم يقف عبد الستار عند فكر الكاتب الاشتراكي، ولا عند ثورة العمال على صاحب المعمل، ولا عند غير ذلك من تفاصيل

طويلة، برع الكاتب فيها تصويرًا، وتصويفًا، حتى أنسى قارئ الرواية زمانه ومكانه، فصار يذهب مع العمال إلى المعمل ويعود، وروائح الزيوت والأقدار لا تفارق ثيابه...

إنها احتفظ من الرواية، بشخصية الأم، (بيلاجي نيلوفنا)، التي لم تكن تعرف قراءة ولا كتابة في القسم الأول والأكبر من عمرها، ولكن قلبها الحي جعلها تدرك فداحة الظلم النازل بالعمال، وبصوالية ثورة ولدها (ميشال فلاسوف)، فصارت تحضر اجتماعات الرفاق المناضلين، في منزليها، إلى أن انخرطت في ثورة الكادحين الذين وصفهم الكاتب قبل الثورة بالاصر المروعة!.

في موضع الشاهد، تتجلى صورة مؤلمة، في أكثر من موقف، في الرواية، هو ضرب المرأة، وإذلاها كل مساء، مع العودة من المعلم، قبل أن يدب سكر الخمرة في الرأس، وبعده... .

وَشَمَة نَقْطَة يَقْرُب فِيهَا عَبْدُ السَّتَّارِ قَدْرًا، مِنْ كَاتِبِ الْرَوَايَةِ، وَهِيَ أَنْ (مَكْسِيمُ غُورْكَيُّ)، ذَاقَ الْيَتَمَ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ،

حين فقد أمه وأباه.

من أقوال(مكسيم غوركي)، التي تقرأ في واقع عبد الستار:

(الأمهات هن فقط القادرات على التفكير في المستقبل؛ لأنهن ينجبنه من خلال أطفالهن).

حكمة قلب

صحيح أن السيد (عبد الستار إيدهي)، لم يكن ذا ثقافة عالية، - كما يُقال -، بل قد تقدم معنا أنه لم يكمل تعليمه، ولكن الحكمة التي وهبها الله تعالى إياها، كانت تضيء له طريقه، كلما أظلم، أو كاد أن يتيه.

كان يشجع بكل ما أوتي، على العلم والتعلم، ويساعد عليه، ويسهل طريقه.

وكان يعلم أن الفقر كثيراً ما يكون جملاً كثيراً من العلل الاجتماعية، فكان في حرب مستمرة مع الفقر، يغلق أبوابه وأسبابه، قبل وقوعه، ويخفف من آثاره، بعد وقوعه. وسنعلم قريباً أن بناء المدارس، وتعليم اليتامي، والمرشدين، كان من جملة الأعمال التي بنتها مؤسسة (إيدهي).

كما كان كثير العناية بالعاملين، يحيطهم على التفاني، والتزاهة. كما كان من أنظمـة المؤسـسة، إقامـة دورـات لتنـمية الموـاحـب.

وكان من دأبه أن يوصي كل العاملين في المؤسسة الإغاثية، أن يعملوا بروح واحد، وأن يخلصوا في أعمالهم على اختلافها، وأن يقدموا لهؤلاء اليتامي، والمعوزين، والمرضى، والشريدين، واللقطاء، كل ما يقدرون عليه، من عطف، وأمان، ورعاية.

«أنتم آباء لمن فقد آباء، وأنتن أمهات لمن فقد أمه، وكلنا أسرة لهم:

فلا تقصروا في مهامكم، فيستفيقوا إلى مرارة أوضاعهم، وفداحة مصابهم.

مهمتكم أن تنسوهم حاجاتهم، وأمراضهم، ونقصهم؛ حتى يتمكنوا من متابعة حياتهم، بنفوس مغمورة بالرضى عن مجتمعهم.

وإن كانت بينكم خلافات، ولكم آراء متباعدة، فإني أوصيكم بالتعالي على ما يؤسس لفرقـة وخصـومة؛ فالفرقـة والخصـومة جـمـعـ الشـرـ، وأـصـلـ البـلـاءـ».

في وصية الرجل الحكيم، نلمح فوائد لا تحصى غزارهً، نشير إلى شيءٍ قليل منها.

إذا كانت الدراسات تؤكد أن كثيراً من المجرمين، والقتلة،
والأشرار، نشأوا في بيئة غير سوية، بيئة ظلم، أو حرب، أو
إهمال، أو فقر، أو غيرها، فإن رعاية يتيم اليوم، وإيواء مُشرَّدِهِ،
وعلاج مريضه، وتبني لقيطه، تعني تحصين هذه النفوس أولاً،
وإشعارها بالرضا.

وتعني أيضاً تحصين المجتمع الغد، من نسمة يتأبطنها، ومن رد فعل تلهب في أعماقه، ومن حقد على كل شيء، وفي كل اتجاه... قد يحسب قارئ أضفي على الرجل اطلاقاً على حصائر الأبحاث والدراسات، وأني أضفي عليه حلية لم يتصف بها، وأمنحه رتبة الحكمة. كيف، وقد علمنا أنه لم يكمل دراسته الثانوية؟!

لا أحتج في جوبي، إلا لإيضاح الفرق بين الإنسان العامل
الذي يمارس أعماله بشعوره قبل بدنـه، تسحبـه أمواجـها،
و تستغرـقـه تفاصـيلـها، فـهيـ فيـ بـؤـرةـ وجـدانـهـ، قـائـمـاـ وـقـاعـداـ، مـاشـيـاـ
وـواقـفاـ، وـبـينـ آخرـ يـؤـدـيـ عـملـهـ تـأـدـيـةـ موـظـفـ، يـخـافـ الرـقـباءـ، قـلـبـهـ

معلق بعيونهم، باحث عن رضاهم.

بخصوص الأطفال، اليتامي وغيرهم، كان يوجّه:

«امنحوا الأطفال دفقات من احترام الذات، وشحنات ترفع نسبة الرضى عنها، شيئاً فشيئاً. وهذا إنما يكون بتشجيعهم على الخدمة الذاتية، وتدريبهم على جني ثمار جهودهم، وعلى حصاد بذلهم.

ثم إياكم - مغلظة - أن تشعروهم أدنى شعور، بأن (بيوت إيدهي) هي المتفضلة المحسنة عليهم، فهذا يتناقض مع اكتهال شخصيتهم نفسياً واجتماعياً» ...

ألا يتطابق هذا مع ما تقوله المدارس النفسية، والاجتماعية؟ وهذا يؤكّد ما قلته - في هذا الكتاب تصرّيجاً وتلميحاً - أن صاحب القلب الحي، يستغنى عن كثير مما يخترنه متعلم نسي - قلبه، أو أسلقه، أو أماته. بل يبسقه إلى عوالم من الأفكار، والأعمال، لم تُكتب في كتاب، ولم تُسمع من أستاذ.

من وصـاـيـاه الصـادـقةـ:

«الـكـلامـ الـفـارـغـ لـاـ يـحـبـهـ اللهـ تـعـالـىـ،ـ وـلـكـنـ أـرـوـاـ اللهـ تـعـالـىـ مـنـكـمـ
إـنـقـاـنـاـ فيـ أـعـمـالـكـمـ،ـ وـإـخـلـاـصـاـ فيـ خـدـمـاتـكـمـ».

وـقـرـيـبـ مـنـ هـذـاـ قـوـلـهـ:

«يـحـبـ أـلـاـ نـكـتـفـيـ بـالـتـلاـوـةـ الـلـسـانـيـةـ لـلـقـرـآنـ الـكـرـيمـ،ـ فـلـاـ بـدـ أـنـ
تـظـهـرـ آـثـارـ التـلاـوـةـ فـيـ أـرـواـحـنـاـ،ـ وـسـلـوـكـنـاـ،ـ شـفـقـةـ،ـ وـخـدـمـةـ،ـ وـعـوـنـاـ
لـلـنـاسـ.ـ وـإـنـ فـعـلـتـ ذـلـكـ،ـ سـتـجـدـ اللهـ تـعـالـىـ فـيـ كـرـبـكـ،ـ وـشـدـتـكـ».

وـفيـ بـيـانـ مـفـعـمـ خـبـرـةـ،ـ وـحـكـمـةـ،ـ يـسـدـيـهـ عـبـدـ الـسـتـارـ،ـ لـكـلـ
الـسـائـرـينـ عـلـىـ دـرـوـبـ الـأـعـمـالـ الـخـيـرـيـةـ،ـ وـإـغـاثـةـ الـمـحـاجـيـنـ:

«عـلـىـ مـنـ أـرـادـ أـنـ يـسـاعـدـ الـفـقـرـاءـ،ـ وـالـيـتـامـيـ،ـ وـالـمـحـاجـيـنـ،ـ وـأـنـ
يـقـومـ بـتـغـيـيرـ جـادـ مـؤـثـرـ فـيـ مـجـتمـعـهـ،ـ فـيـ هـذـاـ الجـانـبـ،ـ أـنـ يـكـونـ
وـاحـدـاـ مـِنـ اـثـنـيـنـ:ـ
أـنـ يـكـونـ قـدـ ذـاقـ الـحـرـمـانـ قـدـراـ،ـ
أـوـ أـنـ يـحـاـولـ تـذـوقـ الـحـرـمـانـ،ـ وـالـعـوزـ،ـ اـخـتـيـارـاـ.

بـغـير هـذـا، لـن يـبـلـغ هـدـفـه، وـلـن يـحـقـق تـغـيـرـه الـذـي يـرـوـم».

الحقيقة الكبرى

ولدت السيدة (بلقيس بانو) = **Bilquis Bano** في (١٤/٨)، عام (١٩٤٧ م)، وهو عام استقلال باكستان، ولأسباب كثيرة لم تستطع متابعة تحصيلها الدراسي، من ذلك، أنها لم تكن تجد تقبلاً للانتظام في المدرسة، وكان أسلوب الدراسة ثقيلاً، مما جعلها تكره الدراسة والمدرسة.

غادرت المدرسة، ولكنها كانت تخفي رغبة أخرى، أو لم تجد لرغبتها حضناً، ولا رعاية. كانت تحب أن تتخصص في مهنة التمريض، ولم تجد هذه الرغبة لديها سبيلاً إلى النور، حتى أنشئ مشروع (عبد الستار إيدهي) الخيري، فانضمت إلى (مراكز إيدهي للتمريض) للتدريب، عام ١٩٦٥ م، في منطقة نائية عن بيت أهلها.

ولكن، ما أسرع ما اكتشف السيد عبد الستار موهبة خاصة، لدى (الممرضة بلقيس)، بل لمس حماساً واندفاعاً خلال برنامج تدريبي مدته ستة أشهر، لتعليم أساسيات الرعاية الصحية.

في تلك الآونة، كان السيد عبد الستار يفكر في زوجة تكون له عوناً على ما وطد نفسه له، وعقد عزمه عليه. لم يتردد عند ذلك، فتقدم لها، وتم الزواج في إبريل / نيسان، سنة (١٩٦٦) م. بفارق (١٩) عاماً تقربياً، بين ولادة الجسدين.

لم يمنعها الزواج من متابعة الدراسة والتدريب، فقد تابعت دراستها فيها بعد، حتى ارتفت إلى الصف الثامن، حسب الأنظمة المتبعة في مؤسسة (إيدهي). ومنذ ذلك الحين، لم تقطع عن المساهمة في العمل الخيري، والإغاثي، في كل باكستان، خدمة للطبقة المسوحقة في ذلك المجتمع.

كانت تفخر بكونها شريكة رجل أحب الإنسانية، حباً لا يبلغه وصف، بل كان يَعُدُّ حب الإنسانية، وخدمتها، أسمى من حب الذات.

إنه بحق - كما تراه (بلقيس) -، رجل خير، وعطاء، وليس صاحب دعاوى مدوية، ولكنها خاوية.

ما أكثر الذين يتسمون سلام الشهرة، من غير أبوابها،
ويقبضون من مكاسبها مغانم، وقناطير مقتضرة، وقد تخفي على
أكثر الناس الحقيقة، ولكن المقربين، وأصدقهم الزوج، أو
الزوجة، لا يخفى عليهم ما قد يخفى على غيرهم.
معيار الأخلاق الحسنة لدى الإنسان، هو واقع أخلاقه، مع
زوجته وأولاده، وأمه وأبيه، وخدمه، والمرأة مع زوجها، وأهل
بيتها. أخبر بذلك الصادق المصدوق عملاً وقولاً، صل الله
تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

على أن (بلقيس)، قالت مرة:

«إنه كان حازماً أول أمره، حاداً الطبع، شديداً، صارماً. ولكنه
كان يحمل قلباً رقيقاً، رحيمًا».

بإمكانيات ضعيفة، انطلق العمل المشترك بين الزوجين،
وتوحدت جهودهما.
ولنصحب القارئ في جولة سريعة، في المبني الوليد:

كان المستوصف مكوناً من غرفة ولادة في الطابق الأول، تتسع لـ(٧) أسرّة، وغرفة ثانية للمعدات، والأجهزة، والخدمات الأخرى.

أما الطابق الأرضي، فقد كان عبارة عن غرفة واحدة، بمساحة (٦٠٦)، لتقديم الخدمات المكتبية كالسجلات المتنوعة، وغيرها.

بهذا المستوصف استقبل الزوجان ومن معهما، كثيراً من حالات الولادة، والإغاثة، والعلاج، وتجهيز الموتى.

ولكن، كيف لم تستوف هذه استطاعته، أن يتمكن من استقبال تلك الحالات وغيرها، وهي في خط ياباني متصاعد؟! كيف؟!
لِتعلم شيئاً من حجم الثقل والعمل، فإني أذكرك بأن دولة باكستان، قد خاضت عدة حروب مع (جارتها) الهند، بالإضافة إلى خوضها الحرب العالمية الثانية ضمئياً، قبل استقلالها عن الهند، فضلاً عن الحروب الأهلية الداخلية.

كان من نتائج هذه الحروب، كوارث، أنهكت الإنسان، صحته، وجسمه، وأمنه، ومسكنه، وأرضه، وعافية روحه...

كوارث الحروب إذا لم تجد عناء وعلاجاً، تنقلب إلى زمانة

ملازِمة، وعلل مستحكمة.

كانت القذائف، والصواريخ، و(القنابل)، وغيرها، تنهمر
لتفتك بقلوب الناس قبل أجسامهم، ولك ان تُقدّر على وجه
التقريب: كم يحتاج هذا من جهود؛ لإغاثة الضحايا، وفيهم
جرحى، وحرقى، ومن قضى تحت الأنفاس...

بل، كان العمل كثيراً ما يستدعي تجميع أعضاء جثة واحدة، ثم
تغسلها، ثم دفنها...

وكان معها من المتطوعين المجهولين، ما يزيد عن (٧٠)
متطوعاً، يقومون بمهمات جمع الأشلاء، وتغسلها، ودفنها.

لقد خاض هذا المستوصف الناشئ معارك إغاثية، لضحايا هذه
الحروب أيامها، ولضحايا الفقر، والجهل، والإهمال، والمرض،
أيام السلم.

فكان في إغاثة متصلة، وتضميد دائم، وإطفاء، وإنساع،
يقصد..

عمل شاق ذاك الذي قامت به السيدة (بلقيس) مع زوجها، في فترة التأسيس، وبفضل صبرهما على متابعة العمل، وعلى عوائق الطموح، نشأ عن المستوصف مستشفى، ثم مؤسسة، وتم تصنيف المؤسسة التي نشأت عن ذاك المستوصف بأنها: (أكبر مؤسسة لضحايا الكوارث في العالم)!.

ليس هذا فحسب، بل اكتسبت السيدة (بلقيس)، لقباً خاصاً، تشتهر به وتندى، في كل ناحية من أنحاء دولة باكستان، إنه لقب:

(الشقيقة الكبرى)=(The Eldest Sister)

ولها لقب آخر وهو: (أم باكستان)=(The Mother of Pakistan)

كان جل اهتمامها منصباً - في تلك الأونة - على قسم النساء في المستشفى، أعندها فيه ابنتها، بل كانت طوع خدمتها، داخل المستشفى وخارجها.

أما داخله فالأعمال معروفة، وأما خارجه، فكانت مهمتها مع ابنتيها، فقد المستوصفات الفرعية، والمراكم الإغاثية،

والإشراف على سير العمل. وربما احتج تقاديم توجيه هنا، وإرشاد هناك، ونصيحة هنالك. ومعظم الأخطاء الواقعة هنا غير مقصودة، ولكن ثقل الأحمال قد يتبع عنه أخطاء.

وَخَصِّصِي حين يكون التعامل مع فئة منسية في المجتمع، فإن العامل في هذا المجال، يحتاج للتزوّد بقدر كبير من الصبر على الرعاية، وعلى ملازمة الرعاية بالمستوى ذاته، من الإتقان. ذلك لأن الملل واقف بالمرصاد، لكل من يعتاد أمراً، ويكرره.

نالت السيدة بلقيس الجائزة العالمية للنصب التذكاري للأم (تيريزا)، وكان ذلك في ٢٢ / ١١ / ٢٠١٥م؛ تقديرًا لأعمالها الإغاثية في كثير من الكوارث: داخل بلدتها، وخارجها، ولعنياتها الخاصة بفتاة هندية، تدعى (جيتسا)، مصابة بالبكم والصمم.

وموجز قصتها: أن حرس الحدود الباكستاني بين باكستان والهند، عثر على فتاة

عمرها (١١) عاماً، قد عبرت الحدود. كان ذلك في أعقاب

حرب بين البلدين.

ولدى سؤالها عن نفسها، وعن أهلها، وعن قصدها، ونحو هذه

الأسئلة، لم تكن قادرة على التعريف بنفسها، ولا بإفاده أية

فائدة، تشرح حالها.

لقد كانت الفتاة صماء بكماء.

استقبلت المنظمة الفتاة، ولكن السيدة بلقيس، لم تدعها مع

عامة البنات في المنظمة؛ نظراً لحالتها الخاصة، فقادمت بالاهتمام

بها، ورعايتها رعاية خاصة، فاحتضنتها بعد خوف، وقادمت

بتعليمها بطرق تعليم أمثاها، وتأمين حياة هانئة لها، وغرست

فيها أملأ وجسارة، حتى بلغت (٢٠) من عمرها.

كانت الفتاة ترى في السيدة بلقيس، أمّا رؤوماً، ومربيّة هبطت

من السماء، فانتسلّتها من موته جهل، وموته تشرد وذل.

علمّا بأن السيدة بلقيس، وفريقاً من منظمة (إيدهي)، هم الذين

أطلقوا عليها اسمها (جيتا).

انتشرت قصتها في باكستان والهند، وفي عدد من دول العالم،

وصارت حديث الصحف، ووسائل الإعلام. وكان من جراء ذلك، استحقاقها الجائزة المذكورة.

صور وآثار

(١)

يُعرَفُ (بدر) بنفسه قائلاً:

«إن السيد عبد الستار والدي، وزوجته بلقيس والدتي، لأنني لا
أعرف والدي الحقيقين.

أحضرت إلى مركز (إيدهي)، في الثامنة من عمري، وتخونني
ذاكري في كل مرة أحاول أن أذكر من أحضرني إلى هنا.
بذللت المؤسسة جهوداً كبيرة، في البحث عن والدي، أو عائلتي،
فباءت كلها بالإخفاق.

أعيش حياة سعيدة هانئة، وقد بلغت الآن (٢٧) من عمري.
منذ مدة قريبة تزوجت، وقد رزقني الله تعالى بنتاً.
لمأشعر بالوحدة، خلال الفترة الماضية كلها، كنا نشعر بدفء،
وحنان، لكثافة العناية المقدمة، من المؤسسة، في التربية،
والتجذيدية، وغير ذلك.

تعجز كلماتي عن شكر والدي!، وعن شكر المؤسسة، وكل

العاملين فيها».

* * *

(٢)

أحمد الآن شاب، - بعد أن قضى طفولته في مركز (إيدهي) -،
يعمل في أحد مراكز (إيدهي).

وقد وفر له المركز تقنيات خاصة تناسب حالته، لأنه أصمّ
أبكم، فأتقن استخدامها، ثم وظفه في المركز ذاته.

وحين رغب بالزواج، لم يطل بحثه، فقد وجد فتاة من داخل
المركز، لا يُعرف والداها، فتزوجها. تمكنْت لاحقاً من الالتحاق
بوظيفة مناسبة أيضاً.

وما زال الزوجان يقدمان - متفانين - للمؤسسة التي رعتهما،
وحنّت عليهما صغاراً.

* * *

(٣)

كرام شيزارد، طفل أصم، اعنت به مؤسسة (إيدهي)، صحياً
وعليّياً، لأنها لمست لديه مهارة، وهمة نادرة، في مجال استخدام
التقنيات.

في سن الزواج، تزوج من فتاة غير معروفة للأبوبين، وأسسوا معاً أسرة مستقرة، طامحة.

10

(ε)

أمير، طفل يتيم أبكم، توفي والده عام (١٩٨٩) م، فكانت صدمة شديدة له - كما يقول - .

حاول التغلب على مصاعب الحياة، فكانت أقوى من ضعفه،
فقرر الالتحاق بأحد مراكز إيداهي.

هناك توثقت صلته بالعاملين في المركز، فأحاطوه بكل ود، وحنان. دون أن يقيدوه بمشاعر مِنْهُ، أو تفضيل، وكثيراً ما كان يقول:

«كان السيد عبد الستار يعاملني كأحد أبنائه، وكنتأشعر أنني أحد أبنائه فعلاً».

• • •

(0)

في ليلةٍ من لياليِّ أسفارِ السيد عبدِ الستارِ الخيرية، هاجمت سيارته عصابةٌ من قطاعِ الطرق، وطلبت منه كلَّ ما في حوزته

من مال، وفعلاً سلبوه كل ما معه، ثم قالوا له: تابع طريقك.
ولكن أحد أفراد العصابة، انتبه إلى أن هذا الرجل هو عبد
الستار إيدهي، فالتفت إلى أصحابه قائلاً:

«ردوا للسيد عبد الستار كل ما أخذتموه منه».
وحين سأله عن السبب؟

أجابهم:

«إنكم إذا قُتِلْتُم يوماً بأيدي العسكر، ورموا جثثكم في
الطرقات، لن يتعرف عليكم أحد، من قريب، ولا صديق، ولن
يأتي سوى هذا الرجل، ليقوم بتجهيزكم، وتكفينكم،
وطفلكم»!.

* * *

(٦)

في عام ١٣٢٠م، هاجم بعض المتطرفين مكتباً تابعاً لمنظمة
إيدهي، في مدينة كراتشي، وسرقوا منه (٤٠٠٠٠) دولار،
وفور إعلان السيد عبد الستار عن سرقة المبلغ، تقاطرت
التبرعات، وازدحمت مراكز إيدهي بالمتبرعين؛ تلبية للنداء.
وفعلاً تم تعويض المبلغ المسروق في زمن قصير جداً.

(٧)

في عام ٢٠١٥م، ضربت موجة حر شديدة، دولة باكستان، فأصابت أقاليم السند، وبلوشستان، وجنوب البنجاب. وأصابت مدينة (كراتشي) الضرر الأكبر، فكانت مؤسسة (إيدهي) في طليعة الجهات التي تقدمت للإغاثة، والمساعدة. وشهد القاصي والداني لكفاءتها، وسرعة وصوتها للمصابين. وقد قارب عدد الوفيات جراء الحر أكثر من ٢٠٠٠ متوف، معظمهم في كراتشي. أما أعداد المصابين فكثيرة جداً. كما أصابت المأساة كثيراً من الحيوانات. ولكرةة أعداد المصابين، فقد اضطرت المؤسسة لمعالجتهم، والعناية بهم، داخل سيارات الإسعاف. واستنفرت غرف حفظ الموتى، في مؤسسة (إيدهي)، لحفظ الموتى، كما دفن الكثير من القراء أفراد عائلاتهم في مقبرة (إيدهي) مجاناً.

* * *

(٨)

من قناعات إيدهي التي استيقنها فؤاده، أن كل فرد قادر على الإسهام في أعمال الخير، منها قل الإسهام، ومن اجتماع جهود

الضعفاء والأقوياء، تفتح ثمرات يانعات مختلف ألوانها، ذات
نفع مشترك ضخم.

وقد ذلل هذا المعنى للناس مراراً، دَلَّهُ لَهُمْ عَمَلياً؛ لأنَّهُمْ كُلُّهُمْ
يسلِّمونَ بِهِ نظرِيَاً!!.

مِنْ تِلْكَ الْمَرَارِ، أَنْ مَدْرَسَةَ قَرِيْتَهُ احْتَاجَتْ مُولَّدًا كَهْرَبَائِيًّا، فَقَامَ
بِشَرَائِهِ، ثُمَّ طَلَبَ مِنَ الطَّلَابِ أَنْ يَقُومُوا بِأَنفُسِهِمْ بِتَوْصِيلِ
أَسْلَاكَ الْمُولَّدِ، إِلَى كُلِّ أَجْزَاءِ مَبْنَى الْمَدْرَسَةِ.

فَكُمْ مِنْ سَعَادَةٍ غَمَرَتْ قَلْبًا، وَكُمْ مِنْ بَسْمَةٍ كَسْتَ رُوحًا، وَكُمْ
مِنْ رِجُولَةٍ هَرَعَتْ إِلَى خِيَالٍ، وَصَبَرَ ذَاقَ شَهَدَهُ صَابِرًا...
وَانْقَلَبَ الْبَنَاءُ إِلَى مَا يُشَبِّهُ خَلَايَا النَّحْلِ، دَأْبًا وَانتِظَاماً.
فِي حَدِيثِ الْدِرَاسَاتِ التَّرْبُوِيَّةِ، أَنْ إِعْطَاءَ إِنْسَانٍ مَا قَدِرَّاً كَبِيرًا
مِنْ مَسْؤُلِيَّةٍ، وَفَضَاءٌ وَاسِعٌ مِنْ حَرِيَّةٍ، يُثْمِرُ نَتَائِجَ كَبِيرَةً،
وَكَثِيرَةً، تَعُودُ إِلَى الْمَجَمُوعِ عَلَى صُورَةِ ردُودِ أَفْعَالٍ، وَانعْكَاسَاتِ
لِتَحْرِيْضِ دَاخِلِيٍّ، وَدَافِعِ معْنَويٍّ.

ذكريات ومحطات

في تلك الأونة، لم يكن الزوجان قد استقلا في منزل خاص بهما، وإنما كانوا يسكنان متنلاً صغيراً، على سطح إحدى العمارت.

لم تستطع الأيام أن تُنسِيَ (بلقيس) خمس السنوات الأولى، التي قضتها مع زوجها، في هذا المنزل.

خمس تركت خطوطها على جدران الروحين، وستبقى تعاشق الخلود والأبد.

كانت مساحة السعادة في قلبيها واسعة، بل كانت في اتساع.

برغم خجل مساحة عشها إلى تلك المساحة.

رزق الزوجان في هذا المنزل، أربعة أولاد:

(فيصل، كتاب، كبرى، الماس)، فضاق عليهم، فانتقلت إلى

بيت والدتها؛ لتساعدها في العناية بالأولاد.

وكان مركز (إيدهى)، يحظى بالجزء الأكبر من يومها،

و اهتماما.

كبار الأولاد، وتوفيت أمها المساعدة الحنون...»

(٥٠) عاماً مع زوجها (عبدالستار)، على طريق فتح أبواب

الخير، وتوسيع آفاقه...

اليوم سفرة إلى قرية نائية؛ لإغاثة من أصيب في حادث سير،
وقدًا في المركز للعناية بالمرضى، ويعده في إسعاف ولادة
متعرجة، وهكذا.

وربما استوقفهم بعض المشاكل على الطرق، طالبين إيقافهم إلى
أماكن يصعب عليهم الوصول إليها. فكانت مهمات سيارة
الإسعاف عند الزوجين، لا تشبه سيارة إسعاف أخرى
إطلاقاً!

تقول:

«كنا نشعر بسعادة لا توصف، وكان يقوى في داخلنا إحساس:
يأننا أغنياء»!.

خلال هذه التنقلات والسفرات الإسعافية، الخدمية، ربما مَرَّ الزوجان على جدول رقراق، أو نهر متدقق، أو جنة من

الأشجار المتعانقة، فكانت أرواحها تستمد من أولئك
المُرْوَحات، نسائم صفاء، وشحنات مثابرة وعطاء.

من تلك الأسفار التي يتذكرها الزوجان حينيناً، سفرة مقدسة،
نحو مكة المكرمة، والبيت الحرام، ومدينة الرسول الأعظم -
صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ -

وكأي مسلم يحن فؤاده إلى مهد الرسالة المحمدية، رسالة النبي
الخاتم - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ -،
اصطحب الزوجان بوسيلة السيارة، وانطلقا من مدينة كراتشي،
في سفرة، فيها من خشونة الطريق، وبعد الشقة، ما فيها...
وكشأن منظار طالب الدراسات العليا، الباحث عن موضوع،
يرى ما لا يراه غيره، ويقرأ ما لا يقرؤه غيره، ويسجل ما لا
يسجله غيره، وتنكشف له جوانب لا تكشف لغيره.
أو كشأن فقير، أو جائع، أو عاري، يقرأ ابتسامتك، وبشاشتك،
نقوداً، أو لقمة، أو كسوة ودفناً.

أو قل كشأن ذي القلب الحي النابض، يقبس الحكمة أني لمعت.
هكذا كان حال عبد الستار إيدهـي، في مناسك حجه، وتنقلاته،

فقد أفاضت مناسك الحج، على حياته معانٍ جليلة، لم تكن منه على بال. سكنت خَلْدَهُ، وفتحت له فهوّاً ومقاصد، يغفل عنها بعض الحاج.

من تلك المناسك التي استوقفته في الحج، منسك رمي الجمرات، في مني.

كان يراها امتحاناً بالغ الصعوبة، أن ترجم الشيطان هناك، ثم تعود إلى طاعته، والإصغاء له، هنا!.

كما أن صدمة أليمة أصابته، من المبالغ الكبيرة، التي تستسهل بذلها فئة تكرر الحج، عاماً بعد عام، وتكثر من العمرة بعد العمرة. وتستعظم مبالغ أقل، لمساعدة الفقراء، والمحاجين!.

بعد عودته وزوجته، من تلك السفرة الخاصة، والرحلة المباركة، كان يحمد الله تعالى كثيراً أن وفقه، وأعانه على أدائها، بينما لم يتمكن من أدائها كثيرون غيره. وكان يكرر قائلاً:

«إذا كانت لدى بعض الناس أموال فائضة، تمكنهم من تكرار الحج والعمرة، فإن في بلدي كثيراً من الفقراء، الذين لا يجدون

ثمن دواء لعلاج أمراضهم، وفي بلدي شباب كثیر، عاجز عن
تكلیف الزواج، وفي بلدي الكثیر الكثیر من المجالات التي
تصرف فيها أموال الحج المكرر...».

وحين يصدق هؤلاء في طلب القرب من الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن
إنفاق أموالهم الفائضة، على المحتاجين، يقربهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ
أكثراً».

كلمات تجمع زبداً في الفقه في الدين، ومقاصده، وحكمه،
وصدق البحث عن مراضي الله عَزَّ وَجَلَّ؛ والبراء من حظوظ
خفية، وأهواء مغلقة.

بيوت إيدهي والتبني

مع اتساع نطاق الخدمات في مراكز إيدهي، كانت تفتح نوافذ كثيرة نام عنها المجتمع دهوراً، لم تكن لتفتح لولا النشاط الصادق، والتلفاني في الإغاثة، والخدمة، والرعاية. وانفتاح النوافذ مؤشر إيجابي، - كما هو معلوم -، والنائمون وحدهم الذين لا تفتح لهم نوافذ جديدة، أو لا نوافذ لهم أصلاً.

كانت السيدة (بلقيس) مبدعة فكرة (بيوت إيدهي)، وبفضل فكرتها الرائعة تأسست مراكز الامتياز في (بيوت إيدهي).

لا تستطيع مؤسسة خاصة، - منها بلغت إمكانياتها - استقبال كل من يحتاج علاجاً، أو إيواءً، أو رعاية؛ فأعداد اللقطاء والمشردين واليتامى أكبر من قدرات مؤسسة خاصة، بل، وعامة أيضاً.

في موضوع (التبني) الذي أشرت إليه سابقاً، يخسّنُ عرض بعض التفاصيل.

فتحت مؤسسة إيدهي أبواباً كثيرة، بهدف إشراك المجتمع

بالإسهام في حمل جانب من المسؤولية. فقد دعت المؤسسة الأزواج لتبني الأطفال الذين لا يُعرف لهم آباء ولا أمهات، ووضعت لذلك شروطاً ومعايير، أشرفـت السيدة (بلقيس) عليها، وعلى عملية التبني إجمالاً.

وحتى نقترب قليلاً، من أجواء هذه الخدمة، نسرد بعض الشروط :

- ١ - اجتياز مقابلة شفهية مع السيدة (بلقيس).
- ٢ - مرور (١٠) إلى (١٢) عاماً على الزواج دون إنجاب.
- ٣ - أن يكون راتب الزوج (المتبني) كافياً.
- ٤ - ألا يكون أحد الزوجين من يتعاطى المخدرات، أو يشرب الخمر، وتأكيد ذلك بتقرير طبي.
- ٥ - ألا تكون الزوجة (المتبنة) قد تجاوزـت (٥٠) عاماً من عمرها.
- ٦ - أن يوفر الزوجان منزلاً مناسباً مقبولاً، لرعاية الطفل (المتبني).

- ٧ ويشترط في هذا المنزل أن يكون معلوماً لمؤسسة إيدهي؛ ليتسنى لها متابعة الطفل. بمعنى أنه يحرم من التبني الأزواج الذين ينتقلون من منزل إلى آخر، بسبب إيجار، أو غيره.
- ٨ تخصيص غرفة مستقلة للعناية بالطفل.
- ٩ في حال انفصال الزوجان، فللمركز القرار في استعادة الطفل لرعايته، في مراكز إيدهي، أو إبقاءه تحت رعاية الزوجة وحدها.

بهذه الشروط تتم عملية التبني، أو عملية رعاية اللقيط، في كنف أسرة مستقلة، خارج مراكز إيدهي، إلى أن يكبر، ويغدو قادرًا على الاعتماد على نفسه.

ومع أن مؤسسة إيدهي فتحت بعض الأبواب، لمشاركة المجتمع في كثير من الأعمال الإنسانية، إلا أن أعداداً من الأطفال (اللقطاء) المشمولين برعاية مراكز إيدهي، لا يجدون إقبالاً من الأزواج الذين يرغبون بالتبني؛ فيبقى هؤلاء الأطفال تحت رعاية المؤسسة.

وفي المقابل، فإن أعداد الطلبات المقدمة للتبني، قد بلغت الآلاف، تختار المؤسسة منها أفضل الأسر، التي تتوافر فيها الشروط والمعايير، ليصب كل ذلك في مصلحة رعاية الطفل، أفضل رعاية ممكنة.

تنبيه إلى خطأ

بعد عرض مضمون التبني في مؤسسة إيدهي، وضح أن كلمة (التبني)، غير مقصودة حرفيًا، وإنما قصد منها رعاية الطفل المشرد، واللقيط.

ذلك أن منهج الإسلام، لا يقبل التبني الذي ينسب الأبناء إلى غير آبائهم، زوراً وإلصاقاً. وقد منع الإسلام التبني الذي كان من أعمال الجahليّة الأولى، واستقر المنع ليُسرى على كل جاهليّة لاحقة. بل كان أول تطبيق لمنهج الإسلام فيه عبر حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم الخاصة، وعلى مشهد من الناس جميعاً، في عصر التشريع.

كما ينبغي التنبيه إلى أنه حتى مع سلامته المضمون، فإن كلمة (التبني) غير مقبولة أيضاً، لما يتadar إلى الأذهان عند استعمالها، من المعنى المنوع، ولا سيما في اللغات الأخرى، فيفهمها كل ذي لغة بمعناها عنده، وليس منها المعنى الإسلامي الخالص

الناصع.

ففي الإسلام (رعاية)، و(كفاله)، وفي الإسلام أحكام دقيقة، تتعلق بحال اليتيم، وبتنميته، بل فيه أمر بتنميته، واستثماره، ومتى يدفع إليه ماله، وذلك بخضوعه لاختبار (رشده)، وهو مصطلح قرآنی، يعني حسن التصرف في الأموال، والأملاك، وغير هذا من تفاصيل ليس هنا مكان عرضها.

فكان الأئمة عدم استعمال هذه الكلمة، وقد ألمحتُ في موضوع آخر، إلى أن السيد (إيدهي)، لو وَجَدَ من أهل العلم، على اختلاف تخصصاتهم، تعاوناً أقوى، ونصحاً مشفقاً، وكانت المؤسسة في حال أرسخ، وأقوى، وأوسع. مع كل ما حققته من اتساع انتشار، وعظيم نفع. ولكنه وَجَدَ من قلة قليلة انتقاداً، وخصوصية، وحسداً!!.

تنويه بفضيلة

في السياق ذاته، وبعد تنبيه أظنني أديت به بعض حق النصح
لهذه المؤسسة الجادة، يحسن بي أن أنوه بحسنة كبرى مِن
حسنات هذه المؤسسة، وما أكثر حسناتها، وهي السعي إلى
رعاية اليتيم، والمسرد، واللقيط، منزلياً، وأسرياً.
هذا سعي مبرور، تقول به طبيعة الخلق، وفطرة الإنسان، فضلاً
عن أبحاث المختصين.

لا نسبة على الإطلاق، بين تنشئة طفل تحت ظل زوجين، مع
أولادهما أو بدونهم، وبين طفل ينشأ في مراكز دور الرعاية
العامة، التي تقل فيها رعاية حاجات الطفل المادية، فضلاً عن
حاجاته النفسية والمعنوية. فربما غابت عن موظف هذه المراكز -
في زحمة المهام، واعتياض الرتابة - علل نفسية، وأدواء أخلاقية،
يعسر علاجها بعد استحكامها.

ما يعني عكسيًا، أن طفل الرعاية الأسرية، أقوى في تكوينه
النفسي، الباطني، مِن نظيره في مراكز الرعاية العامة.

وكلما كانت صلة الكافل والراعي أقرب، كان أفضل للطفل،
وأجدى للمجتمع. مما يعود على المجتمع قوة، وتماسكاً، أليست
قوة الأمة، بقوة أفرادها؟.

الرعاية بين الأسرة والمراكز العامة

كانت طريقة الرعاية الأسرية المترتبة، هي الطريقة المعروفة في واقع المجتمع الإسلامي تاريخياً، ثم بدأت تتراجع بعوامل وأسباب متعددة، ليس هنا مكان جلائها، منها ما يتعلق بالمسلمين أفراداً، وبمدى التزامهم بتعاليم الإسلام عموماً، ولا سيما التشريعات التي تحاصر الأرضية التي يكثر فيها اللقطاء، واليتامى، والمسردون. ابتداءً، وتضيق أبواب وجود هذه الفئات، في خصوص قضايا الشباب، والمهور، والزواج تيسيراً وتعسيراً، والاختلاط، والتقليد، والتهاسك الأسري، وشيوخ الرذيلة في المجتمع، ونحو ذلك.

ومنها ما يتعلق بفتح أبواب الرعاية، والكافالة، والعناية بهذه الشرحـة وأمثالها عند وجودها. وسيأتي شيء من هدایات الإسلام في هذه المواضيع.

لا يعني هذا أن قيام الدولة على دور الرعاية، أمر مذموم. ولكن المراد أن الرعاية الأسرية مقدمة، لما أسلفت آنفـاً، وأن نظام

التكافل الاجتماعي في الإسلام، يلزم الأقارب برعاية قريبهم اليتيم، عند عدم وجود مؤسسة عامة ترعاهم، ويورثه من أقاربه فينتقل إلى حال الغنى، ومن ثم يُنفق عليه من ماله. وفي حالة غير اليتيم، فإن الدولة ملزمة برعايته، والإنفاق عليه. وغير ذلك من نظم لا تعرفها النظم الوضعية.

ولكن الملاحظ أن الطريقة الأولى كادت أن تغيب، فتُقلّل العبء على المراكز العامة، واعتبرها ما يعتري المؤسسات العامة، من آفات وأمراض.

كانت الدولة قدّيماً تعني باختيار الكفلاء، وتنفق على المكفولين، وتتابعهم، وهم في رعاية أسر الكفلاء. وإنفاق الدولة إنفاق واجب، يقول النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم:

«أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وعليه دين، ولم يترك وفاء، فعلينا قضاوته، ومن ترك مالاً فلورثته».

وفي رواية: أنَّ النبي - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم - قال:

«ما مؤمن، إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، واقرئوا إن شئتم ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦] فايًّا مؤمن مات وترك مالًا فلِيَرْثُه عصبُتُه مَنْ كانوا، ومن تَرَكَ دِينًا أو ضَيَاعًا فلِيَأْتِيَ، فَإِنَا مَوْلَاه». أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذـي.

وكان أفراد المجتمع يتسابقون إلى هذه المكارم، تسبعاً بهدي القرآن العظيم، والسنـة المقدسة، في هذه القضايا وأمثالها. بل كانت المجتمعات تقف بـأوقاف ووصايا متنوعة الأهداف، منها ما يعني بالنفقة على تعليمهم وتربيتهم عموماً، ويـشمل هذا رواتب المعلمين والمربين، ولو ازـم كل ذلك.

ومنها ما يعني بأمور خاصة معينة، كتحفيظهم القرآن العظيم، أو بعض العـلوم، أو بكسوة لكل فصل من الفصول، أو بناء سـكن، أو تزويجـهم عندما يـكرون، وغير ذلك.

حتـى استـرعت ظـاهرة كـثرة المـدارس والـمحاضـر، التي تـعنى بالأيتام الرحالـة ابن جـبـير، فقد عـدهـا من أـغـرب ما يـحـدـثـ بهـ من

مفاخر البلاد الشرقية من العالم الإسلامي، ثم ذكر بعض ما شاهده من أمور مرتبة لهؤلاء الأيتام.

هذا القرآن العظيم يحث على مخالطة اليتامي، ويحذر من استضاعفهم في الزواج، والتعامل المالي، بل قد جاء التحذير مسلطًا على قربان مال اليتيم، لا على المال ذاته، وقص علينا قصة نبيين كريمين، يجهدان أنفسهما، في قرية بخيلة، في إقامة بناء ليتيمين، رحمة بهما، وحافظاً على مالهما، وإكراماً لصلاح أبيهما.

ونهى عن قهر اليتيم مادياً ومعنوياً، والتسبب بأي ألم نفسي، أو إذلال، أو إهانة، ولم يكتفي بذلك من لم يطعم مسكيناً، ولكنه ذم من لم يحضر على إطعامه!. كما صنفت السنة الشريفة أكل مال اليتيم في كبار الذنوب.

وبالمقابل فقد كفل رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وحضر على الكفالة: كفل بفعله، وربّي أيتاماً، كأنس بن مالك، وعمر بن أبي سلمة،

ورعى غير الأيتام أيضاً.

ورفع بقوله منزلة كافل اليتيم في الجنة، إلى منزلة عالية غالبة،

يقول النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتَيْمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا». وَقَالَ - أَيْ أَشَارَ - بِإِصْبَاعِهِ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى». أخرجه البخاري.

و قبل المتابعة، ينبغي التيقظ إلى أن هذه المنزلة العالية للكفالة، لا تعني العناية المالية فحسب، ولكن معها عنابة أدبية، روحية، علمية، مما يستدعي تصحيح مصطلح (كفالة اليتيم)، لدى كثير من المسلمين.

ويحيث الرسول الرؤوف الرحيم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، حثاً مؤكداً على الشفقة على اليتيم، والرحمة به: يروي أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: (أَنَّ رَجُلاً شَكَّاً إِلَى التَّبَّى صلى الله عليه وسلم قَسْوَةً قَلْبِهِ فَقَالَ: «اَمْسَحْ رَأْسَ الْيَتَيْمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ»). أخرجه أحمد، وحسن الحافظ ابن حجر إسناده.

هذا، ويشارك اللقيط، والمنبود، والشريد، اليتيمَ في كثير من أحكامه، وفي بعض آخر، قد يكون اللقيط أحوج مِن اليتيم.

بعد هذه الإلماحة، لا أشك أنك تستطيع أن تحكم بنفسك على ما يُسمى (يوم اليتيم العالمي لি�تامى الحروب)، و(اليوم العالمي لি�تامى الإيدز)، وغيرهما مِن أيام ...

ولا يصل امرؤ إلى إدراك عظمة ما قدمته مؤسسة (إيدهي)، حق الإدراك، حتى يطلع على واقع المجتمع الباكستاني، الذي ولدت فيه المؤسسة، وحتى يكتسب دراية بالنسيج الاجتماعي، والعادات، والأعراف.

لأن هذه البواعث، و(المحرّكات) كامنة وراء سلوك الناس، ولكل مجتمع بواعثه، ومحركاته، ومن لم يتتبع منها، عَسْرٌ - عليه فهم القضايا، أو تخليلها، ومن ثم معالجة الأدواء والعلل.

طموح من باطن قَدَرٍ!

تابعت المؤسسة توسيع خدماتها، بل رفع مستوى الخدمات باستمرار، ووصل الأمر ببعض الخدمات، أن بلغت مرحلة الرفاهية والتطور الراقي جداً.

وكانَت السيدة بلقيس تقرأ في هذا التقدُّم، مستقبلاً مشرقاً لدولَة باكستان، إذا شاع بين الناس شعور بآلام المعذبين، والضعفاء، ثم عملوا على تلافي مواضع القصور، والإهمال. وفي سبيل هذا الهدف الطموح، رافقت السيدة (بلقيس) زوجها في كثير من أسفاره، إلى عدد من دول العالم؛ ثم عادا بأفكار ورؤى، أسهمت وأغنت مشاريع المؤسسة.

كان الزوجان يطمحان إلى مستوى من الخدمات، يساوي الخدمات المقدمة في أرقى دول العالم في هذا المجال، بل إلى مستوى أفضل.

تقول السيدة (بلقيس) وهي تنظر بعين إلى الواقع، وبآخرى إلى المأمول:

«لم نحقق إلى الآن إلا القليل، حتى المياه الصالحة للشرب، نحن نعاني من مشكلة كبيرة في نقلها، إلى المناطق الفقيرة، والمعدمة. في حين أن النفط يتدفق في مدينة (كراتشي).
يعتقد كثير من الناس، وأنا منهم، أن قطار تقدم باكستان، قد تأخر (٢٠ عاماً).»

ولكن قدرًا إلهيًّا كان ينتظرونها:
ففي سنة (١٩٧٦)م، تعرض السيد عبد الستار إيدهي وزوجته (بلقيس)، لحادث سير، قرب قرية نائية، على طريق المطار. فنقل السيد عبد الستار وزوجته للعلاج في تلك القرية النائية، دون أن يعلم بالحادث أحد، اللهم إلا من كانوا في تلك المنطقة. وفي زمن قريب جدًا، انهارت عمارت في مدينة (كراتشي)، تسمى عمارت (بسم الله)، وشاع الخبر في وسائل الإعلام، ولثقة الناس بمؤسسة (إيدهي)، توجهت الأنظار إليها، قبل أن توجه لجهات الإسعاف الرسمية في الدولة، علمًا بأن المؤسسة آنذاك، لم تكن تملك إمكانات سريعة قوية، ومع ذلك قدمت ما لديها، ولكن قدرًا كان مختبئًا وراء قدر.

لحظ السيد ذو الفقار علي بوتو^(١) - رئيس الوزراء آنئذ - غياب السيد عبدالستار إيدهي، فاستخبر عنه، فأخبر ب تعرضه لحادث، وأنه في منطقة نائية، فأرسل له طائرة إسعاف، نقلته إلى

(١) - ذو الفقار علي بوتو (١٩٢٨ - ١٩٧٩) م.

ولد في إقليم السند، الذي أصبح تابعًا لباكستان بعد سنة ١٩٤٧، وكان الولد الوحيد للسيد شاه نواز بوتو، إحدى الشخصيات الباكستانية المعروفة. اشتغل في مهنة المحاماة، ولع اسمه على المستوى القومي للمرة الأولى عام ١٩٥٤ بسبب مواقفه الرافضة للدعوات الانفصالية، التي بدأت بوادرها في الظهور بين باكستان الغربية والشرقية.

شغل منصب وزير الخارجية من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٦ م.

ثم ترك ذو الفقار علي بوتو الحكومة سنة ١٩٦٦ م، بعد أن تفاقمت الخلافات بينه وبين الرئيس محمد أيوب خان، بشأن اتفاقية طشقند، وأسس حزب الشعب الباكستاني، واختار أميناً عاماً له.

هُزمت باكستان في حرب ١٩٧١ م، أمام الهند، وكان من أهم نتائج هذه الهزيمة، انفصال باكستان الشرقية تحت مسمى (بنغلاديش)، ولم يستطع الرئيس آغا محمد يحيى خان تحمل تبعات هذه الهزيمة، فاستقال ليتولى الحكم من بعده ذو الفقار علي بوتو، الذي فاز حزبه بأغلبية الأصوات، في باكستان الغربية سنة ١٩٧٠ م.

وفي سنة ١٩٧٣ أصبح ذو الفقار علي بوتو رئيساً للوزراء، واستمر في منصبه حتى عام ١٩٧٦، حين نجح انقلاب عسكري قاده الجنرال ضياء الحق في إلقاء القبض عليه، وإيداعه السجن بتهمة الابتعاد عن الممارسات الديمقراطية، ووضع ضباط الانقلاب ابنته (فينظير) تحت الإقامة الجبرية. وفي ٤ أبريل / نيسان ١٩٧٩ م، نفذ فيه حكم الإعدام.

أحد مستشفيات مدينة (كراتشي).

بعد أن استعاد السيد عبد الستار وعيه، وقضيته، وحُسْنَه النادر،
عَبَرَ لزوجته (بلقيس)، عن رغبته بشراء طائرة إسعاف!



حروب حوادث الطرق، قائمة ليل نهار، تنتظر إيقاف نزفها،
بتكاتف الوعي المجتمعي، والتقنية الخادمة، والقرار الحكومي،
ومعظمها غير متوافر. إنها مشكلة مزمنة، وليس في متناول
التنفيذ. هذه جوانب خارجية.

في الجوانب الشخصية، فإن أول ما يشغل إنساناً تعرض
لحادث، هو شأنه الخاص، وألمه، ووضعه الصحي، وما أشبه
هذا. لكن (عبد الستار)، إنما شُغِل باله بكل مصاب بحادث، لم
يجد مُسِعِّفاً، ولا طائرة إسعاف، ولا عناية طبية سريعة...

لقد قفز قلبه النابض من ألمه الخاص، إلى آلام الآخرين، اجتبها

إلى فكره، وجعل من ألمه الم��ب، جذوة لا تنطفئ، يستحضر
من خلاها، أرواح المتوجعين. فكأنه يتأمل بعدد لا يحصى من
طافوأ بكيانه، ووجادانه. فانبث كل ذلك وغيره، حروفًا باح
بها لزوجته!.

أحابته زوجته، باستغراب وحسرة:

«هذه رغبة جامحة، بعيدة المال؛ وأنّى لمؤسسة محدودة
لإمكانيات، ثمن طائرة إسعاف، أو نفقاتها»!.

ولكن قلبًا لا يؤمن باليأس، ولم يسمع بالاستسلام، حقيق به
وصفه، وغير مستنكر عليه طموحه. والحمد لله تعالى، لم يخوب
طموح هذا القلب.

بل لعل هذه النقطة، لفتت نظر كثير من زاروه وضيوفه،
الغربيين وغيرهم، كانوا يسألون بذهول:
كيف لإمكانيات ضعيفة، أن تشرم هذا الإنجاز الكبير، وكيف
خاض هذه اللجة، مع شدة حال، واتساع حاجة، وانفراد في
التفكير، والتوجه، والعمل، في بدايات التأسيس؟!.

لقد غاب عن هؤلاء، أن من امتلك شيئاً خطيرين، امتلك

كنزاً لا يقدر كل أحد على الظفر به:

١ - إيمان وطموح لا يستسلم

٢ - وليس بالقلب على مواضع الألم

لأن الطموح لا يرى العوائق

والقلب يرى ما لا تراه العيون المجردة.

وللمعترضين كليمة

رجل أجرى الله تعالى الثناء عليه، وعلى أعماله، على ألسنة الناس، ووضع له القبول في الأرض، ويَسِّر على يديه مِنْ الخير ما تعجز عنه دول وحكومات، مشاريع شاهدة على جهوده، وجهاده، حاول هذا الكتاب أن يشير إلى بعضها، أو أن يذكر عناوينها، فهل يصح في العقول التي سَلِمْتُ مِنْ مَسًّ، أو أفن، أن تُرمى هذه الإنجازات المرِهقة، في زاوية المخاصمة، أو النسيان؛ لأن أحدهم سجل عليه خطأً، أو على بعض أفراد أسرته؟ !.

أو ظن هذا الطاعن، أنه لا يصح مساعدة غير المسلمين! أو توهم أن إيواء الأطفال الذين يلتقطون من الشوارع، وحاويات القمامـة، ورعايتـهم، يعد تشجيعاً على الرذيلة، والفاحشة! .

أو رأى مخالفة لبعض تعاليم الدين، في فعله، أو قوله، أو في فعل زوجته، أو قوتها، أو حجابها، أو غير ذلك، مما قد يراه بعض

الناس !.

مِنْ ذَلِكَ مَا يَكُونُ حَقًّا، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مِنْ مَسَائلِ الْخِلَافِ، وَمِنْهُ
مَا يَكُونُ مَا يَسْتَبِدُ بِعِصْمَانِ النَّاسِ مِنْ أَفْكَارٍ، أَوْ أَوْهَامٍ، أَوْ تَقَالِيدٍ،
أَوْ غَيْرَةٍ فِي غَيْرِ مَحْلِهَا، أَوْ عَاطِفَةٍ لَا تَقْوِيمُ عَلَى أَرْكَانِ مِنْ عِلْمٍ
مُحَقَّقٍ، وَلَا أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ...

كُنْتُ أَرْغُبُ أَنْ أَتَابِعَ عَرْضَ قَصَّةِ هَذَا الرَّجُلِ، دُونَ أَنْ أُلْقَى بِالْأَلْقَالَةِ الْجَاهِلِينَ، أَوْ لَمْ يَنْتَطِعُوا، أَوْ نَقْدُ الْفَارَغِينَ.
فَتَهْزَأُتْ أَفْكَارَهُمْ، نَقْمَوْا عَلَى السَّيِّدِ عَبْدِ السَّتَّارِ، مَسَاعِدَتِهِ
لِكُلِّ النَّاسِ بِلَا تَمْيِيزٍ؛ فَكَيْفَ يَسَاوِي فِي أَعْمَالِ الْإِغَاثَةِ، بَيْنَ
مُسْلِمٍ، وَنَصْرَانِي، وَهَنْدُوسِي، وَبُودُوِي؟!
وَلِمَاذَا تَضَمِّنَ الْمَلَاجِئُ، وَدُورُ الْأَمْوَةِ وَالرَّعَايَاةِ، وَالْمَسَتَّشِيفَاتِ،
مَرْضِيِّ، وَيَتَامِيِّ، وَمُشَرِّدِيِّ، وَمُسَنِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ، مِنْ كُلِّ فَئَاتِ
الْمَجَمِعِ؟!.

هَذِهِ تَهْمَةٌ رَكِنْتُ إِلَيْهَا، وَتَشَبَّثْتُ بِهَا، فَتَهْزَأُتْ تَسْهِيلَ الْقَوْلِ،
وَتَخَاصِّمُ الْعَمَلَ. تَهُوِيَ الْمَثَالِبُ، وَتَعْمَى عَنِ الْمَنَاقِبِ.
وَطَائِفَ سُوءَ الْأَلْمَ بِعِصْمَانِ النَّاسِ، الَّذِينَ أَحْرَجُوهُمْ نَشَاطَ رَجُلٍ لَمْ

يدخل تحت جناحهم، ولم يُعرف بغزير علم، ولم يَحمل شهادة
عالية، فكيف يرتقي هذه الدرجات الباسقة، في قلوب الناس،
فيأسـرـها، ولـمـاـذاـ يـتـفـقـ عـلـىـ مـحـبـتـهـ المـسـلـمـ وـغـيـرـهـ، وـالـجـاهـلـ وـالـعـالـمـ،
وـأـهـلـ الـمـنـاصـبـ، وـعـامـةـ النـاسـ؟!؟.
بلغ الضيق ببعض هؤلاء، أن هددوا حياته!!.

في قراءتنا لتلك الجريمة، والمرحلة، لا نتعجب في البحث عن
الأسباب:

تيارات فكرية مختلفة، ومذاهب دينية متخاصمة، كانت تتنازع -
في زمن المراهقة آنذاك، وما زال بعض قليل منها - على قيادة
المجتمع، وفرض مذهبها، وفكرها، ت يريد اختطاف أَزْمَةَ كل
شيء. ثم يخرج رجل لا يُعرف بحزبية، ولا مذهبية، ولا أدنى
شبهة انتهاء لأي منهم، ولا ألقاب علمية، ولا غنى، فيقدم
خدمات جليلة، يتشرف إليها المجتمع، بلا تمييز، لتفوت
المكاسب على أحزاهم، ومذاهبيـمـ!ـ.
مع إدراكمـ الحـقـيـقـيـ لـشـدـيدـ حاجـةـ المجـتمـعـ إـلـيـهـاـ، وـمـسـيـسـ

التعطش لقطراتها.

حاولوا جره إلى أحذائهم؛ ليكون تحت أجنبتهم، فرفض.
حاولوا توجيهه كما يرغبون، وتقييده بخطوط رسموها، فأبى.
فحكموا على أعماله من خلال مناظيرهم ! .
ومع ذلك بقي حراً، جريئاً، متّسماً، قوياً، في داخله قبل
ظاهره.

وقف ج بلاً في مواجهة هذه الفئة الشادة، التي تهدم ولا تبني،
وتعيب ولا تنسح.

لقد ذبلت في قلوب هؤلاء، المعاني الإنسانية، وأقفرت عقولهم
من علم يكشف لهم فروق ما بين ضرورات الإغاثة، والإيواء،
والعلاج، وغيرها، مما قامت به مؤسسة (إيدهي)، وبين أمور
أخرى ينفرد باستحقاقها المسلم وحده.

وفرق ما بين الأمرين، لا يخفى على عاقل ! .

الهوة التي انزلقت إليها بعض المجتمعات العربية، والإسلامية،

أورثت عبّا ثقيلاً، اجتماعياً، وصحيّاً، ومادياً، وثقافياً، وغير ذلك من عواقب الفساد، والظلم، والتناحر.

كل أعمال السيد عبد الستار، وإخوانه، ومراكزه، ومؤسساته الضخمة، كانت تعمل في مستوى تجاوزته الدول الناهضة، والمجتمعات الصاعدة. ولكن نكوص غيره عن مهامهم، دفعه ليسد الفجوة السحرية.

فالإنسان المكرّم، - وكل إنسان مكرّم - يُدعى إلى الإسلام الرحيم، الكامل، الجميل، بعد أن تتوافر له أساسيات الحياة، ومقومات طمأنينة الفكر، وتُدفع عنه آلام الذل، ومنغصات الأمان. إنه الآن أشبه بغريق، يئس من أسباب النجاة. فهل تطالبه بالدخول في دينك، وهو يصارع الأمواج، ويفقد أرماقه، الواحد تلو الآخر!؟.

نؤكّد هنا، على أن الدعوة إلى هذا الإسلام، لا يستثنى منها أحد، بل كل أحد من غير أهلها مضطر إليها، اضطرار نجاة، وخلاص، وسعادة. ولكن ما يجيب فك التباسه، هو ربط الإغاثة، بالدعوة، وتعليق

المساعدة على اعتناق الإسلام. بل لعل العكس هو الأقرب
لمعنى الدعوة اللطيف الرفيق، أن تحسن إليه بلا حدود، دون أن
تُنكر له مادياً، أو معنوياً.

وهذا ما قام به السيد عبد الستار، ومؤسسنته. وتلك هي المهمة
التي نهض لها، على ضعف الإمكانيات، واتساع الواجبات،
وتوافر كل دواعي اليأس والبؤس، وعدم توافر المشجّع ولا
المحفز، إلا سناً أمله العابر، وجر عزيمته الماضية. بل، وحرب
الفارغين، الذين يتصدرون، لأجل تجارة الأحزاب، والمذاهب.
تسوقهم آفات قلوبهم، وسخائم دواخلهم.

كما أن هؤلاء ينقمون على السيد عبد الستار، استقباله للقطاء،
بدعوى أن ذلك يشجع الفاحشة!.

لا أحتج في الجواب عن هذا التوهم المركب، إلا لإيضاح
أمرین:

الأول: أن القضيتين منفصلتان، ولا أجد رابطاً بين رعاية

اللقيط، وبين تشجيع الفاحشة، اللهم إلا في خيال رجل
مريض، موسوس، شهوان.

هذا إن كان اللقيط - فعلاً - مولوداً عن علاقة محمرة.
فكيف، إن كان اللقيط قد رُمي لأسباب أخرى غير العلاقة
المحمرة.

الثاني: مع التسليم بوجود لقيط، عن علاقة محمرة، فأي
السبيلين أرضى الله تعالى، وللعقل، وللفطرة، ولكل قوانين
البشر الأسواء:

ترك الفاعل سادراً في غيه، ليقترف جرائمتين عظيمتين: جريمة
زنى، وجريمة قتل، أو وأد؟!.

أو السعي لمنع إحدى الجرائمتين، أو تقليلها، إن لم يمكن منع
الاثنتين معاً؟!.

ثم أجعل على ذُكرِ منك، أنَّ شناعة جاهلية عظيمة، تقعوراء
بعض جرائم قتل المواليد، - فهذهجرائم ولادة - وهي التي
وصفها القرآن الكريم بقوله:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَعْيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونِ أَمْ يَدْسُهُ
فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

وقد ذكرت في موضع سابق، أن نسبة الإناث من اللقطاء،

كانت تقارب ٩٠%.

وأن عبد الستار كان يكتب على مهود الأطفال، التي يوزعها في مناطق كثيرة، من باكستان:

«لا تقتل... دع الطفل يحيا في مهده»

باليمن: الأوردو، والإنجليزية.



ثم أعلم أن من أهداف جهود (إيدهي)، في هذه النقطة تحديداً، - إذا فاته منها - تجهيز الوليد المقتول، أو المؤرود، ودفنه دفناً يليق بإنسانيته، ففي القاتلين والقاتلات، والوائدات، والوابدات، مَن يتهدى في جرائه، ويخوض في الفظائع خوضاً، ليقوم بإحراق الوليد بعد واده، أو تقطيعه، أو غير ذلك، مما يمْقته الله تعالى، واهبُ الحياة، وتمْقته الفطر، والبشر، والحجر. وما أكثر ما كانت تصل سيارات (إيدهي) الإسعافية، إلى المهوّد التي وزعتها، لتجد أطفالاً فارقوا الحياة، أو في الرمق الأخير.



ومن الانتقادات التي أتوقعها، وإن لم أجدها فيها اطلعت عليه من انتقاداتهم، تساهل زوجته بلقيس في حجابها، ومصافحته للفتيات اللواتي ترعاهن المنظمة، والنساء عموماً، وغير ذلك من أمور لا أملك معها إلا الإقرار بوجودها فعلاً، والتصرّح

بحرمة بعضها - فيما أظن -، دون أن يستتبع ذلك قفز إلى حكم على الرجل، أو زوجته، أو المؤسسة كلها، بالضلال، أو الفسق، أو التنقيب عن السرائر، والضمائر.

هي إن كانت أخطاء حقاً، فهي تنتظر نصيحة محب، لا فضيحة حاسد متريص ...

بل، قد وصل الأمر ببعض هؤلاء الغلاة، إلى دركة الجرأة على تكفير عبد الستار، والحكم بإلحاده !.

وبعد هذه الأحكام، انزلقوا إلى محاولة اغتياله !.

لسنا إلا خلقاً من خلق الله تعالى، وعيديداً من عباده، نحكم بما أذن لنا بالحكم به. حتى حُكْمُنا هذا المأذون به، ليس حكماً بالمال، إنما هو حكم بالحال ثم لا يزيد قيد ظن سيئ مهما دقّ، ولا حرف منطوق مهما قال، ولا إشارة مفهومة مهما رمزتْ. رجل فاضت عنه جلائل، وانتفع بأعماله ما لا يدخل تحت حصر - من الناس، مسلمون وغيرهم، داخل باكستان وخارجها، وكثُر خيره، ووثق الناس بأمانته، وعفته، ونزااته. سيرة عاطرة، لم يصنعها محب ولا مبغض. فليسبشر أن يحذف

شيئاً، من هذه السيرة، محبواً أو مكروهاً، ولا أن يعذّل في
شريط حياة الرجل، أدنى تعديل.

ثم في محاكمات العقول، أيقضي العقل بتربيص هناته، وسيئاته؟!
اللهم إلا أن يكون القاضي مأفوّناً في عقله، أو زائغاً عن رشده.

حتى الخطأ الظاهر المتفق عليه، من أهل الفضل، لا يستوي مع
خطأ غيرهم، حين يوضع في الميزان.

في أي المدارس درس هؤلاء؟!
عمن أخذوا؟
من من الراسخين، قَوْمٌ شرودهم، وأنار بسراج العلم جهلهم،
وهذب طيشهم، وزَكَّى فهمهم؟!
ما حظهم من الحكمة، والموعظة الحسنة؟

لماذا يتهاقون حيث تُبرم أحكام البت، والابتصار، والإعجاب
بالرأي، والتكفير، وأخواتها، ويقلّلون حيث تُصنع النفوس
الزكية، الصابرية، المشفقة، التي تجتنب سوء الظن، وتحب نشر

الدعوة، وتضع يدها في أيدي العاملين معها، ويتسع صدرها لما
يخالف آراءها؟!

كيف، والرجل مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا
رسول الله، ويصلِّي صلواته الخمس، وقد حجَّ بيت الحرام؟!

عندما حاولوا أن يشغلوا الرجل بمعاركهم، وتوهماتهم،
وأحكامهم، ظل سائراً ولم يعقب، وربما رد عليهم أحياناً
بكلمات قليلات، ومن ذلك قوله حين أكثروا عليه الاعتراض،
على قيامه بإسعاف غير المسلمين، من هنود سين، ونصارى،
وغيرهم، قال لهم:

«سيارات الإسعاف أكثر إسلاماً منكم».

وقال لهم في مناسبة أخرى:

«ديني هو خدمة الإنسانية، والإنسانية أساس مشترك بين كل

الأديان».

وتـأـلـمـتـ زـوـجـتـهـ السـيـدـةـ بـلـقـيـسـ مـرـةـ،ـ منـ اـنـتـقـادـاتـ هـؤـلـاءـ،ـ
فـقـالـتـ - وـحـرـوفـهاـ تـفـيـضـ اـسـتـغـرـاـًـ:ـ

«كـلـ ماـ نـقـومـ بـهـ،ـ هـوـ مـهـمـةـ الـحـكـوـمـةـ،ـ وـبـدـلـ أـنـ يـقـدـرـ هـؤـلـاءـ
أـعـالـنـاـ،ـ فـإـنـهـمـ يـوجـهـونـ لـنـاـ سـهـامـ الـلـوـمـ وـالـنـقـدـ!ـ».ـ
وـعـسـيـرـ جـدـاـ عـلـيـ،ـ وـعـلـىـ غـيرـيـ،ـ عـرـضـ كـلـ مـاـخـذـهـ،ـ
وـاـنـتـقـادـاـتـهـمـ،ـ ثـمـ الإـجـابـةـ عـنـهـاـ.

ولـكـنـيـ أـحـبـ أـنـ أـضـيـفـ هـنـاـ - بـكـلـ شـجـاعـةـ - نـقـطـةـ مـهـمـةـ،ـ هـيـ
أـنـ السـيـدـ عـبـدـ الـسـتـارـ - رـحـمـهـ اللهـ تـعـالـىـ - كـانـ ذـاـ ثـقـافـةـ مـحـدـودـةـ،ـ
وـعـلـمـ مـتـواـضـعـ،ـ فـلـمـ يـكـنـ عـالـلـاـ،ـ وـلـاـ مـنـقـفـاـ وـاسـعـ الـاطـلـاعـ،ـ
وـلـكـنـهـ كـانـ ذـاـ ثـقـافـةـ فـطـرـيـةـ مـتـقـدـةـ،ـ وـحـسـ إـنـسـانـيـ رـهـيـفـ،ـ وـرـحـمةـ
فـيـاضـةـ،ـ تـمـلـيـ عـلـيـهـ مـهـمـتـهـ،ـ وـتـحـدـدـ لـهـ اـتـجـاهـهـ.

كـانـ يـعـمـلـ بـسـائـقـ مـنـ بـوـصـلـةـ آـلـاـمـ اـخـتـرـنـهـ عـقـلـهـ الـبـاطـنـ،ـ - فـيـهاـ
نـظـنـ - مـنـ دـرـوبـ وـعـرـةـ سـلـكـهـاـ.ـ وـقـدـ عـرـجـنـاـ عـلـىـ كـثـيرـ مـنـهـاـ فيـ

طي حديثنا عن نشأته.

فلا غرابة أن تقع منه الأخطاء شخصياً، وأن تسجل على اجتهاده المؤسسي مآخذ شرعية، وفنية، وقد كنت قدّمتُ أن الرجل لم يكن عالماً، ومع ذلك، فقد قَدَمَ ما عجز عنه كل علماء بلده، بل، وغير بلده فيما نعلم، في عصرنا هذا. وفضل الله تعالى واسع، وفي الأمة خير كثير مكنوز، يتنتظر قادة يستخرجونه.

أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لَا يَكُمْ

مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحَسَنُوا الْبَنَى

وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفُوا وَإِنْ عََدُوا شَدُّوا

ولكن الحصافة والغيرة الصافية، تلزم أصحاب المآخذ، أن يقدموا هداياهم وهدایتهم له بآثواب نصح ومحبة، وأساليب دعم ومؤازرة. أما الحديث في صحيفة، أو أي منبر آخر، بلا حاولة لقاء به، أو إيصال النصيحة إليه بوسيلة أخرى، - وما أكثرها - فإن هذا يسيء الظن بهم أنفسهم؛ لأن آثار الخلفيات

الباعثة، تظهر في أساليب النقد، وعيون الناقد، وحركات جسده، وفلتات قلمه ولسانه.

إن كثيراً من فضلاء الإسلام، وعظمائه، كانت لهم أخطاء. منها الكبير، ومنها الصغير، تعامل المسلمين معهم طبقاً لمنهج الإسلام، وذلك بالثناء على حسناتهم، وإسداء النصح لهم، في مواطن السيئات. وليس من منهج الإسلام إطلاقاً، إلغاء كل حسناتهم، وحذف كل جهودهم.

ولو صحي هذا، لم يسلم أحد غير الرسل والأنبياء عليهم صلوات الله تعالى وسلاماته !.

وهذه نقطة تستدعي مزيد بيان:

ففي مدعى العلم اليوم، من يتورع رعاة باردة، ويحتاط حيطة بلهاء، فلا يمنح صك رضاه ذافن، أو همة: سابق، أو معاصر، ولا يمنع عنه أذاء، حتى يطوف بحياته، ويحيط بأصغر وحداتها الزمنية، ويقلب صفحاتها، ويخترق دقائقها، ويتبع آثاره، ويخصي أنفاسه، ثم يثبت لجهله، أنه مقبول، قد اجتاز القنطرة، قنطرة مذهبة !.

بـهـذا يـمـكـن أـنـ يـسـلـمـ مـنـ اـنـتـقـادـهـ، وـقـدـحـهـ فـقـطـ، وـلـكـنـهـ لـاـ يـحـوزـ
دـرـجـةـ مـدـحـهـ. مـعـ أـنـهـ مـتأـخـرـ مـحـلـاـ وـرـتـبـةـ!ـ.

وـقـدـ وـجـدـ هـذـاـ الـكـبـرـ (ـالـعـلـمـيـ)، سـبـلـاـ مـذـلـلـةـ إـلـىـ كـلـ
الـتـصـصـصـاتـ، وـالـفـنـونـ. مـعـ أـنـ مـعـظـمـ الـفـنـونـ الـعـلـمـيـةـ، هـيـ ظـنـ
وـاجـهـاـدـ.

هـذـاـ التـنـطـعـ، مـاـ أـصـلـهـ؟ـ.
كـيـفـ نـشـأـ؟ـ.

مـنـ دـفـنـ بـذـورـهـ، ثـمـ سـقـىـ مـنـابـتـهـ؟ـ.
وـهـلـ يـنـجـوـ مـنـ هـذـاـ الغـرـبـالـ أـحـدـ، حـاشـاـ الـأـنـبـيـاءـ عـلـيـهـمـ الـصـلـةـ
وـالـسـلـامـ؟ـ.

ماـ رـصـيـدـهـ مـنـ الـعـلـمـ وـالـحـقـيقـةـ؟ـ.

الـإـجـابةـ الـوـافـيـةـ سـتـخـرـجـ بـيـ عنـ خـطـةـ الـكـتـابـ، وـلـكـنـيـ سـأـذـكـرـ
شـذـرـاتـ مـوجـزـاتـ جـدـاـ، مـنـ كـتـابـ الـإـسـلـامـ الرـحـيمـ الـعـظـيمـ، فـيـ
مـعـاملـةـ غـيرـ الـمـسـلـمـينـ، مـنـ الـوـاقـعـ الـعـمـلـيـ لـاـ النـظـريـ:
فـيـ خـلـافـةـ أـبـيـ بـكـرـ الصـدـيقـ - رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ -، كـتـبـ خـالـدـ
بـنـ الـولـيدـ - رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ -، فـيـ عـقـدـ الـذـمـةـ لـأـهـلـ الـحـيـرةـ
بـالـعـرـاقـ - وـكـانـواـ نـصـارـىـ:-

«وَجَعَلْتُ لَهُمْ أَيْمَانًا شَيْخَ ضَعْفَ عَنِ الْعَمَلِ، أَوْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ مِنْ الْأَفَاتِ، أَوْ كَانَ غَنِيًّا فَأَفْتَقَرَ، وَصَارَ أَهْلُ دِينِهِ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ، طُرِحَتْ جِزْيَتُهُ، وَعِيلًا مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَعِيَالُهُ مَا أَقَامَ بِدَارِ الْهُجْرَةِ، وَدَارِ الإِسْلَامِ».

ومر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، مقدمه إلى أرض الشام، بقوم مجذومين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات، وأن تخصص لهم من نظام الأقواء مخصصات دائمة.

وكتب عمر بن عبد العزيز - رضي الله تعالى عنه -، إلى أحد ولاته:

«... وَانظُرْ قِبَلَكَ مَنْ مِنْ أَهْلِ الدَّمَةِ، قَدْ كَبَرْتُ سِنَّهُ، وَضَعَفْتُ قُوَّتُهُ، وَوَلَّتْ عَنِ الْمَكَاسِبِ، فَأَجْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا يُصْلِحُهُ».

وفي مسنـد أـحمد رـحمـه اللهـ تعالـى، مـن حـديث أـنسـ بـنـ مـالـكـ - رـضـيـ اللهـ تعالـىـ عـنهـ -:

«أَنَّ عُلَمَّـاً يَهُودِيًّـا كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ،

فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ: أَطْعِمْ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ».

وبعد، فهذا نقطة وذكرى، لمن ألقى السمع وهو شهيد، مما فعله
الخلفاء، والرؤساء، وأرباب المسؤولية. مع أن صاحبنا لم يكن
رئيساً، ولا وزيراً، ولا مسؤولاً، ولا اقترب من هذه المناصب،
ولا سعى إليها.

أتى به القدر في زمن تحتاج فيه الدعوة إلى الإسلام، لكثير من التجديد، وإعادة النظر في الطرق التقليدية، لما تسبهم به وسائل الإعلام - على تنويعها - من لصق افتراءات كاذبة بالإسلام، وتعظيم أخطاء بعض المسلمين على جميعهم، وتجاهل بعض المسلمين بما عندهم !.

فِلَمْ لَا تَكُونَ أَعْمَالَهُ الْخَيْرِيَّةُ، مَعَ عَدْمِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ
وَغَيْرِهِمْ، دُعْوَةٌ عَمَلِيَّةٌ، تُرَى وَاقِعًا، وَلَا تُقْرَأُ قِرَاءَةً، أَوْ تُسْمَعُ
سِمَاعًا؟!.

وفي عصرنا الراهن، نموذج نادر، ومثال أرeah حجة عملية، على

أهل العصر عامة، وعلى الأثرياء والمسؤولين خاصة، ألا وهو الطبيب الداعية الراحل عبد الرحمن السميط رحمه الله تعالى.



Dr. Abdul Rahman Al Sumait

ولد الدكتور عبد الرحمن حمود السميط في ٣٠ / ١١ / ١٣٦٦ هـ، الموافق ١٥ / ١٠ / ١٩٤٧ م.

مؤهلاته العلمية:

خريج جامعة بغداد - كلية الطب يوليو ١٩٧٢ م.
دبلوم أمراض مناطق حارة - جامعة ليفربول - أبريل ١٩٧٤ م.
تخصص في جامعة ماكجي - مستشفى مونتريال العام - في
الأمراض الباطنية، ثم في أمراض الجهاز الهضمي - يوليو ١٩٧٤ م، ديسمبر ١٩٧٨ م.
أبحاث في سرطان الكبد - جامعة لندن مستشفى كلية الملوك

(كينجز كوليدج) - يناير ١٩٧٩ م، ديسمبر ١٩٨٠ م.

عمله:

طبيب ممارس في مستشفى مونتريال العام (١٩٧٨-٧٤).

طبيب متخصص - مستشفى كلية الملك - لندن (٧٩-٧٦).
١٩٨٠.

طبيب متخصص في أمراض الجهاز الهضمي - مستشفى
الصباح (١٩٨٣-٨٠).

منذ ١٩٨٣ م متفرغ للعمل في جمعية العون المباشر (لجنة مسلمي
إفريقيا سابقاً)، بوصفه أميناً عاماً ثم رئيس مجلس للإدارة حتى
٢٠٠٨.

رئيس مركز دراسات العمل الخيري.

رئيس تحرير مجلة الكوثر.

أبحاثه العلمية الطبية:

الفتحة بين البنكرياس والقولون - نشرت في مجلة الجمعية الطبية
الكندية في ١ / ٠٤ / ١٩٧٨ م

سرطان بقايا المعدة بعد جراحة القرحة الحميّدة - بحث قدم في مؤتمر الكلية الملكية للأطباء في كندا - مدينة كوييك - فبراير

١٩٧٩ م

الفحص بالمنظار للورم الأميبي بالقولون - نشر في مجلة منظار الجهاز الهضمي - عدد ٣ / ١٩٨٥ م في الولايات المتحدة الأمريكية.

دراسة أهمية المنظار الطارئ في حالات تزيف الجهاز الهضمي (تطبيقات في ١٥٠ حالة). "بحث ألهي في مؤتمر الجهاز الهضمي في مستشفى مونتريال لعام ١٩٧٨ م .
فيتامين (B12) كعامل لعلاج سرطان الكبد (لم ينشر).

مؤلفاته:

كتاب لييك أفريقيا.

كتاب دمعة أفريقيا (مع آخرين).

كتاب رحلة خير في أفريقيا «رسالة إلى ولدي».

كتاب قبائل الأنتيمور في مدغشقر.

كتاب ملامح من التنصير دراسة علمية.

إدارة الأزمات للعاملين في المنظمات الإسلامية.

السلامة والإخلاء في مناطق النزاعات.

كتاب قبائل البواران.

قبائل الدينكا.

دليل إدارة مراكز الإغاثة.

كتاب قبائل الغراء.

كتاب قبيلة الميجيكندا في شرق كينيا.

كتاب حقيقة مسافر .

توفي رحمه الله تعالى في ١٤٣٤ هـ الموافق ١٥ / ٨ / ١٠

۱۳۰۲ م.

الذى شقَّ أَوْعَرَ طرِيقَ إِغاثَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَقَدْ كَانَتْ كَثِيرًا مِنْ دُولَ إِفْرِيقِيَّةٍ - وَمَا زَالَتْ - تَعْانِي مَرَارَاتٍ تَكَدَّسَتْ عَبْرِ سَنِينَ، مِنْ جَهْلٍ، وَمَجَاعَةٍ، وَتَصْحَرٍ، وَأَطْمَاعٍ خَارِجِيَّةٍ، وَحَرَوبٍ عَمِيقَتْ كُلَّ مَا سَبَقَ. فَأَغَاثَ بَعْونَهُ كُلَّ مُحْتَاجٍ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ، لِتَنْقُلَبْ هَذِهِ النَّقْطَةُ، إِلَى شَمْوَسِ هَدَايَاَتِهِ، وَخَيْرَاتِهِ، لَهُ، وَلِلْمُهْتَدِينَ، وَلِلْأَمَةِ، وَلِلإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعَهُ.

قال د. السميط رحمه الله تعالى مرة:

«إن زكاة أموال أثرياء العرب، تكفي لسد حاجة ٢٥٠ مليون مسلم، ولو أخرج هؤلاء الأغنياء الزكاة عن أموالهم، لبلغت ٥٦.٨٧٥ مليار دولار، ولو افترضنا أن عدد فقراء المسلمين في العالم كله يبلغ ٢٥٠ مليون فقير، لكان نصيب كل فقير منهم ٢٢٧ دولاراً، وهو مبلغ كاف لبدء الفقير في عمل متجر، يمكن أن يعيش على دخله».

ولم يفرق د. السميط - في عمله الخيري طوال عقود - بين مسلم وغير مسلم في القارة الأفريقية، فلم يطعم المسلم ويحرم غيره. بل جعلهم سواء لأنهم مشتركون في حق الإنسانية.

أصبحت «جمعية العون المباشر»، التي أسسها د. السميط، أكبر منظمة عالمية في أفريقيا كلها، يدرس في منشآتها التعليمية، أكثر من نصف مليون طالب، وتتلقى أكثر من أربع جامعات، وعدهاً كبيراً من الإذاعات والمطبوعات، وقامت بحفر

وتأسيس أكثر من ٤٠٠٠ بشر، وإعداد وتدريب أكثر من ٨٦٠٠ داعية ومعلم.

ويقول د. السميط رحمه الله تعالى:

«نادراً ما نقدم (كاشاً) للفقراء، ولكن نقدم مشروعات تنمية صغيرة، مثل: فتح بقالات، أو تقديم مكائن خياطة، أو إقامة مزارع سمكية؛ فهذه تدر دخلاً على الناس، وتنشلهم من فقرهم، وغالباً ما تترك أبلغ الأثر في نفوسهم، فيهتدون إلى الإسلام».

ويقول عن مسيرته:

«لست نادماً على المضي قدماً في هذا الطريق؛ لأنني اخترته بقناعه تامة، ورضي بقضاء رب العالمين. ولكنني أشفق على إخواني الذين اختاروا زينة الحياة الدنيا، التي صرفت أبصارهم عن اللذة الحقيقية، التي تحف بها المشاق والمكاره».

كانت ترجمة هذه القناعات مذهلة، فقد أثرت جهوده مشاريع عملية في تلك القارة، - التي لم تعرف الغرب إلا مستعمرًا أو مُنصّراً - وحققت الكثير على أرض الواقع، مما يعيي عنه اللسان والقلم، ويكتفي أن د. عبد الرحمن السميط، كان سبباً في إسلام أكثر من عشرة ملايين أفريقيي هناك. بعد أن جاب بإغاثته، ودعوته، أكثر من ٢٩ دولة Afrيقية.

تعرض خلاها لعدة محاولات اغتيال في Afrيقية، من قبل (مليشيات مسلحة)، بسبب تحسين أوضاع الفقراء والمحتجين، وإقباهم عليه، وتفكيك كثير من أسباب اصطيادهم، واستعبادهم. كما عانى جراء العيش في المناطق الفقيرة، وتحمل لسع البعوض، والأمراض، والأوبئة، في بقاع متفرقة من Afrيقية.

لقد انتزع ذاته من بيئه غنية، تکور بالخيرات، والرفاه، ليوزع قلبه، وخدماته، على بلاد كثيرة، نائية عن دنيا الثراء، بل، وعن ضروريات العيش أيضًا! .
وانزع النفس من ملاذها، ووطنهما، لا يُقرّبُه إلى الفكر، ولا

يقاربه في الألم، إلا انتزاع الروح.

عَرَفَ هَذَا مَنْ عَرَفَهُ، وَجَهَلَهُ مَنْ جَاهَلَهُ.

رحم الله تعالى الراحلين: (إيدهي) و(السميط)، وأفاض على
جدثيهم غيوث رحماته، وغفوه، ودرجاته.

السيد عبد الستار إيدهي، في شبه القارة الهندية، والدكتور عبد
الرحمن السميط، في الكويت من الوطن العربي، شمسان أشرقتا
مع تقارب الزمان، وتبعاد المكان.

وإذن، فالدعوة الإغاثية، أجدى من الأحاديث المرسلة في
الفراغ.

تحدث عن المواساة دهرك، بكل ما أوتيت من لسن وبيان، لن
تحرك مجتمعك إلى التواسي بصدق، حتى يرى منك برهاناً،
يشاهده من واقعك، ويلمسه من حركتك.
وكذلك الدعوة إلى الإسلام، لا فرق.

لم لا يبدأ هؤلاء إن كانوا غياري، من حيث وصل السيد عبد
الستار؟!

فقد كشف عمله رحمة الله تعالى، عيوبًا، وإهمالًا، وفسادًا.

كما كشف كنوزاً مخبأة في ضمائر الناس، وأعماقهم. ولكنها لا تشرق إلا بوجود قائد شجاع، أو عامل مخلص ثقة. لأن ثقتهم لا تُمنح بيسر وسهولة، ولا يُلقاها إلا ذو حظ عظيم، من النزاهة، والتفاني؛ فقد أجبرتهم قسوة الزمان، وظلم الأقوياء، على حجب ثقتهم عن أكثر من يعايشونهم؛ لما لمسوه، بل ذاقوه، من كذب، وأنانية، وخداع، وقلب لظهر المجن...

كل ما سلف، يقال هؤلاء، من جهة رحمة الإنسان بأخيه الإنسان، حين تنزل به مصيبة الشدة، والضرورة، والألم، والفاقة، وما يتولد عنها... فإذا انتحينا في القضية منحى آخر، أدركنا هول فاجعة هؤلاء بعقوتهم، وبسلامة إدراكيهم.

هب أن هؤلاء - الذين قامت المؤسسة على إغاثتهم، وعلاجهم، وإيوائهم، - كانوا دوابَّ تمشي على رجلين، أو على أربع، أو على بطنهما، **أفيقول الضمير:**

دع هذه (الدواب) تلقي حتفها؟

وهل تقبل الفطرة السُّوِّيَّة، أن يتأخر مخلوق عن إطعامها، أو

سقيها، حين تبلغ بها الشدة مبلغاً؟!.

إن إغاثة إنسان هذه البهائم، دليل على أن إنسانيته ما زالت تنفس، ومؤشر على أن في قلبه بقية من رقة ورحمة، قد تؤهله لنيل غفران الله تعالى، ودخول جنته ونعمته.
(على أن السيد إيدهـي لم يحـرـمـ نفسهـ، ولا مؤسـسـتـهـ منـ فـضـائـلـ رـحـمـةـ الـحـيـوـانـ، كـماـ سـتـرـىـ قـرـيبـاـ).

والعكس صحيح، فإن ظلمها، وإرهاقها، وتعذيبها، دليل على نعائض تلك الشـائـلـ والـفـضـائـلـ.

ثم نرتقي في التوضيح، لنتزل إلى أسفل، إلى جنس النبات:
هل تشـيـحـ الفـطـرـةـ، ويـمـيلـ الطـبـعـ السـلـيمـ، عنـ إـغـاثـةـ مـزـرـوـعـ، أوـ مـداـواـةـ مـغـرـوسـ؟ـ!ـ.

ما نصنع إذا انطمـستـ بعضـ البـصـائـرـ، أوـ رـانـ عـلـيـهاـ تعـصـبـ
حالـكـ، أوـ أـحـرقـ كـبـدـهاـ حـقـدـ مـسـتـرـ؟ـ!ـ.

تصحيح الفهـومـ أولـ

يقول المثل العربي: (أـسـاءـ سـمـعـاـ، فـأسـاءـ إـجـابـةـ)، وـعـلـىـ غـرـارـ هـذـاـ
المـثـلـ، مـنـ كـانـ فـهـمـهـ لـقـضـيـةـ ماـ شـائـهـاـ، أـوـ كـانـ تـصـورـهـ تـائـهـاـ،
فـسـيـنـضـحـ إـنـاؤـهـ اـخـتـلاـلـاـ، وـانـحرـافـاـ، عـنـ سـدـيدـ الـعـمـلـ، وـصـحـيـحـ
الـحـكـمـ).

وـإـذـاـ كـانـتـ قـوـةـ الـلـغـةـ عـنـدـ إـنـسـانـ ماـ، تـجـعـلـهـ قـويـ الـعـقـلـ، صـائـبـ
الـفـهـمـ، فـكـيـفـ إـذـاـ غـرـفـ مـنـ بـحـرـ مـنـهـجـ اـمـتنـ بـهـ الـحـكـيمـ
الـعـلـيمـ؟ـ!ـ.

الـإـسـلـامـ دـيـنـ اـرـتـضـاهـ الـخـالـقـ الـحـكـيمـ لـعـبـادـهـ، هـذـاـ إـلـاسـلامـ، يـأـبـيـ
كـثـيرـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ التـزـامـهـ بـدـقـةـ وـاعـتـزاـزـ، وـيـصـرـونـ عـلـىـ إـبـقاءـ كـثـيرـ
مـنـ هـدـايـاتـهـ، وـأـدـوـيـتـهـ عـلـىـ الرـفـوفـ. هـذـاـ إـلـاسـلامـ لـهـ أـحـكـامـهـ فيـ
تـفـاصـيلـ، تـغـيـبـ عـنـ غـيرـ الـمـخـتـصـ، حـتـىـ يـظـنـ أـوـ يـعـتـقـدـ خـلـوـ
الـإـسـلـامـ مـنـهـاـ، أـوـ ضـعـفـهـ أـمـامـ دـوـلـ مـعـاـصـرـةـ، يـتـوـهـ أـنـهـاـ
مـتـحـضـرـةـ فيـ كـلـ الـجـوـانـبـ، بلـ سـبـقـتـ الـمـسـلـمـينـ بـسـنـيـنـ ضـوـئـيـةـ!ـ.
هـذـاـ حـدـيـثـ لـاـ يـفـيـ بـهـ كـتـابـ وـلـاـ كـتـبـ، وـلـكـنـ مـوـجـزاـ قـدـ يـكـونـ

ذكرى لغافل، وتنبيهًا لجاهل حتى يتعلم ما فاته.
وقضية العبادة في الإسلام، من القضايا المفصلية بالغة الخطورة،
في حياة المسلم. التي اعترى فهوم الناس لها قصور، وابداع.
نتج عنها أمثلها في السلوك، والعمل، والثقافة العامة. وما
أسرع أسباب الانتشار، والذيع، في هذه الأيام! .

إن إغاثة ملهوف، وإيواء مشرد، وكفالة يتيم، وإنقاذ مضطرب،
وطرد جوع عن جائع، وإعانة مسكين، في زمان شدة، ومسغبة،
هذه الأعمال، وما قاربها في الضرورة، وكثير من أنواع
الصدقات، أفضل من الحج نفلاً، ومن الجهاد ذروة سنام
الإسلام نفلاً، ومن فروض الكفايات، على علو منزلتها، وكثرة
أنواعها.



فضلاً عن كثير من التواكل الأخرى، التي تنزل مرتبتها من

حيث الأولوية، ومن حيث تعدد النفع، وقصوره.
وتسقط عن مؤديها، والداعي بها، والمعين عليها، كثير من
التكاليف المعظمة في الإسلام؛ تخفيفاً عنهم، وتشجيعاً لهم،
وتكريراً للإنسان.

بل، تضافرت النصوص الكريمة الشريفة، التي تبشر جزماً،
بنيل المغفرة في بعضها، وبسكنى أعلى المازل في الجنة، وفي
بعضها بأجر المجاهد، وفي بعضها بأجر صائم النهار، قائم
الليل، وفي بعضها بالفوز بمجاورة الرسول الأكرم - صلى الله
تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم -، مجاورة اللصيق، في
الفردوس الأعلى.

وعرض هذه النصوص يطول كثيراً، وقد فهمها الرعيل الأول
هذا الفهم، وأنزلوها المنزلة التي أنزلتها النصوص الموحى بها.
من هذه النصوص:

قول النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، من
حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه:

«السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمُسْكِنِينَ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ»
وأحسبه قال: «وَكَالْقَائِمِ الَّذِي لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ الَّذِي لَا

يُفْطِرُ» مُنَفَّعٌ عَلَيْهِ.

وعن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - أيضًا، قال: قال رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم -: «كَافُلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ». وأشار بالسَّبَابَةِ وَالوُسْطَى. رواه مسلم.

ويقول التابعي الجليل الحسن البصري رحمه الله تعالى: (يقول أحدهم: أَعُجُّ أَعُجُّ!، قد حججت، صل رحما، نَفَّسْ عن مغموم، أَحْسَنْ إلى جار).

وشهرة قصة الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى، تغنى عن سردها.

وفيها: أنه رجع مع قافلته عن حج عامهم، ودفعوا نفقتهم لفتاة وأخيها كانوا في شدة، ومسغبة.

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى، في جواب من سأله: هل يحج نفلًا، أم يصل قرباته، قال: «يضعها في أكباد جائعة».

فهل الواقع العملي لمسلم هذا العصر، يقدم صورة قريبة من هذه النماذج، أو يمكن أن تتصل بها بخيط منها دق؟

هل تقارب فصاحة السنة أحوال المسلمين عموماً، مع فصاحة

السنة أقوالهم؟

إنَّ من أهم ما أُقبلَ بقلوب الناس على عبد الستار، هو صدقه

مع ذاته، وابتداؤه بنفسه، بتخفيف حاجاته، وماربه، وتعلقاته.

بل، إن الشأو الذي بلغه في هذا المضمار، أتعب كثيرين

كثيرين...

تقول زوجته (بلقيس) :

«لم يَبْيَنْ عبد الستار بيَتاً لأَبْنائِهِ!».

بل إنه ألزم نفسه بأزهد من هذا، وأعجب:

فلم يكن له إلا ثوبين، إذا غسل أحدهما لبس الآخر!

يَقْتُنُ معظم الناس قديماً وحديثاً، في تنويع كسوة أجدامهم،

ولباس هياكلهم، وينفقون من أموالهم الكثير، ومن استقلال

أذواهم وأوطانهم أكثر.

أما هو فقد ألبس باطنه لباس الجمال، وأغنى قلبه بالسخاء،

وزكي أعماله بالإحسان. فانزاحت عنه نعائص كثيرة، وعيوب

مزمنة، يسعى بعض الناس لسترها وإخفائها، بوسائل متنوعة، منها ألبسة جميلة لأجسامهم، وتحلية مرفهة لأفواصهم. يكثرون من هذه الأرياش، وبواطن كثير منهم مظلمة، لا نور فيها، ولا إشراق.

فتتش بينهم عمن يهتم لكسوة روحه، فضلاً عن أن يتعب في هذه السبيل، وتلك الغاية السامة.

وإنني لأسمع قارئاً، يرى في هذا المستوى خروجاً عن حد الاعتدال، وانحرافاً إلى فلسفات شاذة، وسلوكيات باطلة، ولكن إمعان الفكر في تفاوت توزيع الثروات، تفاوتاً يقتل بالجوع أقواماً، وبالشبع والترف أقواماً آخرين، يذيب هذه الاستغراب !.

ألم يك استطراق الثروة في قدرها الأدنى، ضرورة حياة أجسام الصنفين، وحياة أرواحهما؟.

ربما يصح في قرون غَبَرَتْ، نعْتُ ذلك الزهد الغالي، والفقر المصطنع، بكل ذميم، ولكن قياس تلك القرون على عصرنا، قياس حُرم الفقه كله، وفارق السداد كل المفارقة.

كانت الثروة توزع على كل أفراد المجتمع، على سبيل الإجمال،

ولم يكن التفاوت والفساد، يصل إلى كل زوايا معيشة الناس،

إلا أيام المجاعات، والحروب، ونحو ذلك.

ويأتي تكافـلـ النـاسـ بالـوازـعـ الذـاتـيـ، ليـغـطـيـ نـوـاقـصـ فـسـادـ

الـجـوانـبـ الـأـخـرىـ.

ولـكـنـناـ الـيـوـمـ نـشـكـوـ فـقـرـاـ مـقـفـرـاـ مـنـ كـلـ الـجـوانـبـ !ـ.

وـكـانـ فـقـيـهـ ذـلـكـ الزـمـانـ، حـيـ الضـمـيرـ، وـالـقـلـبـ، وـالـإـنـسـانـيـةـ.

وـكـانـ يـجـدـ مـنـ فـقـهـ دـيـنـهـ كـلـ مـؤـيـدـاتـ أـوـلـئـكـ الـأـحـيـاءـ.

وـلـاـ يـعـدـ ذـلـكـ الزـمـانـ شـاـذـاـ عـنـ هـذـاـ الـفـقـهـ، وـلـكـنـهـ كـانـ يـجـدـ شـفـاءـ

شـذـوـذـهـ، حـوـارـاـ، أـوـ دـوـاءـ، أـوـ إـعـرـاضـاـ، أـوـ تـأـديـبـاـ.

وـحـسـبـكـ حـدـيـثـانـ لـلـنـبـيـ -ـ صـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ عـلـىـ آـلـهـ وـصـحـبـهـ

وـسـلـمـ -ـ فـيـ مـوـقـفـ شـدـدـةـ عـارـضـ:

عـنـ أـبـيـ سـعـيدـ الـخـدـريـ -ـ رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـ -ـ قـالـ:

«بـيـنـاـ نـحـنـ فـيـ سـفـرـ إـذـ جـاءـ رـجـلـ عـلـىـ رـاحـلـةـ لـهـ، فـجـعـلـ يـضـرـفـ

بـصـرـهـ يـمـيـنـاـ وـشـمـاـلـاـ»ـ -ـ أـيـ يـتـظـرـ مـعـيـنـاـ -ـ فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ -ـ صـلـىـ

الـلـهـ تـعـالـىـ عـلـىـ آـلـهـ وـصـحـبـهـ وـسـلـمـ -ـ:

«مـنـ كـانـ مـعـهـ فـضـلـ ظـهـرـ (ـدـاـبـةـ لـلـرـكـوبـ) فـلـيـعـدـ بـهـ عـلـىـ مـنـ لـاـ

ظـهـرـ لـهـ، وـمـنـ كـانـ لـهـ فـضـلـ زـادـ فـلـيـعـدـ بـهـ عـلـىـ مـنـ لـاـ زـادـ لـهـ»ـ،

فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرُهُ، حَتَّىٰ رَأَيْنَا، أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا
فِي فَضْلٍ». رواه مسلم.

وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله تعالى عنه -، قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْأَشْعَرِيَّينَ إِذَا أَرْمَلُوا (أي فَرَغَ زَادُهُمْ، أَوْ قَارَبَ الفَرَاغَ) فِي
الغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَاهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي
ثُوبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ. فَهُمْ مِنْيٌ
وَآنَا مِنْهُمْ». متفقٌ عَلَيْهِ.

وإذن، فإن اختلاف حال الشدة، يوجب اختلاف حكم
الإعانة. فكيف إذا فشت الشدة، وغلب الفقر ولوازمه، في
مجتمعاتنا العربية والإسلامية؟!.

من هنا لا نعجب إذا قرأنا في مكونات فكر السيد عبد الستار
إيدهي، تأثراً خاصاً بشخصية الصحابي الزاهد، الرقيق، صادق
اللهجة، الحازم على نفسه، وعلى الآخرين، أبي ذر الغفارى
رضي الله تعالى عنه.

وقد كان مذهبـه رضي الله تعالى عنه، وجوب إنفاق الزائد من
الملبـس، والمـأكل، ووجوب الاقتـصار على قدر الضرورـة في

المسكن.

وهو مذهب لا يطيقه عامة الناس، قدّيماً وحديثاً، بما فيهم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصهوة، ولمسلم، وهو مذهب أصيل في فكر أبي ذر، وفي اجتهاده، ولم يتصل بمذاهب الشرق ولا الغرب، بأية صلة. ولكن فهمَ فهماً في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، خالفة فيه جمهور الصحابة، مع تسلیمهم بغزاره علمه، وقوته صدّعه.

ولعل شهود عبد الستار إيدهي، مأسى عدة حروب، ومعاينة فساد توزيع الثروة، وندرة العدل الاجتماعي، مع تكوين نفسي طباعه بارئه عليه، ومحضن تربوي غرسه والداه في عميق وجدانه، جعل كل ذاك منه ثائراً على الرفاهية والشبع، في زمن المجاعة، والافتتان في ألوان التبذير، في زمن الشدة الغالبة على المجتمع.

وجعله يميل عن حب التجربة، إلى مذهب أبي ذر رضي الله تعالى عنه.

وللحيوانات بيوت ورعايا

حين تسكن الرحمة قلبًا، فإن آثارها تفيض لا محالة على كل
شؤون حامل القلب، وأحكامه، وقراراته. ويتمكن في كثير من
أحواله، من سرعة التحرك، بلا تردد، ولا تشتبه، والعقلاء بلا
رحمة قلب، في أحوال حساباتهم غارقون.
يل ينطلق كالسهم أو أسرع، نحو هدفه؛ ذلك لأنّه حاز بوصلة
نفيسة، وسرعة استقبال لا تقدر بزمن.

وإن وهنت الرحمة في قلب، ففيه من الأمل، بقدر تلك البقية.
ومَنْ ترحلت الرحمة عن قلبه، فاعده في الموتى، وكبّر عليه. ولا
تخدعنك أنفاسه الصاعدة الهابطة.

وهذا يعني أن الرحمة لا تتجزأ إطلاقاً، فلا يقبل في قانون الرحمة، أن ترحم هنا، وتقسو هناك. أو تذوب أسيّ ل موقف، وتظلم في موقف غيره!.

هذا لا يكون أبداً؛ أليس القلب واحداً، فكيف يتاتي أن ينفصل
عن قلب واحد ضidan؟! اللهم إلا أن يكون ذلك من تلونات

ذوي الوجوه المتعددة.

ذكرتُ - فيما مضى - توجه السيد عبد الستار إيدهي، نحو خدمة الناس عامة، وذكرتُ كثيراً من تفاصيل تلك الخدمات. ولكنه مع كل ما ناء به، مِن ثقل ذلك التوجه، فقد حاصرت الرحمة اختياره، ووقع في شباكها؛ لينتقل إلى الحيوانات، فيواسيها بنداه.

كان يمر في الطرقات والأسفار، على حصان بلا مأوى، أو حمار أسيئت معاملته، أو قط مريض، أو حيوان قد أصابته إعاقة، أو نحو ذلك، فكان يترجل عن سيارة إسعافه، ليعالج تلك الحيوانات، ثم يجعلها في مكان آمن قدر الاستطاعة، أو على جانب الطريق. وقد التقrott زوجته بلقيس ذات مرة، قطة صغيرة مريضة (kitten)، فقادت بعلاجها، والعناية بها حتى شفيت.

ولكثرة ما كانت تستوقفه أمثال هذه الحالات، تأكدت عنده فكرة إنشاء بيوت تحت مظلة المنظمة، ترعى هذه الحيوانات، وتعالجها، وتعتنى بها.

كانت رحمة قلبه تقوده لزوماً، إلى إعانة ما يصادف من هذه

الحيوانات، ولا تدع له خياراً آخر. بينما كان عقله لا يكتفي بالظاهرة، حتى يبحث عن أسبابها.

كان عقله يقرأ - وللألم - في هذه الظاهرة، قسوة منبني الإنسان، وتوحشاً، وعنفاً، وظلماً، وسوء معاملة، وجرائم أخرى كثيرة تت-dessس تحتها. مع العلم أنه لم ينفرد برؤيه الظاهرة، ولكن كان كل الناس في مجتمعه، يشاركونه معايشتها ورؤيتها، بل، وزيادة الوحل بله!.

تبليورت الفكرة عنده، ولكنها لم تجد طريقها إلى التنفيذ، حتى زار عدداً من البلدان الأوروبية، واطلع على كثير من مؤسساتها الخيرية، كما اطلع على مراكز علاج الحيوانات المريضة، أو المعاقة. فعاد من تلك الجولة، وقد عقد العزم على تنفيذ فكرته القديمة، مستفيداً مما شاهده في البلدان التي زارها.

اشترى أرضاً مساحتها (١٦) فدانًا، وشرع في البناء سريعاً، وبعد الفراغ من إنشاء المركز، تم تجهيزه لاستقبال الحالات المخصصة له.

أحيط المركز بأسوار عالية، وزرعت فيه أعشاب وأشجار وورود، وتركت فيه مساحة واسعة في وسطه.

خطط لهذا المركز أن يكون مستشفى بيطريًا، ومربيًّا، ومأوى، يستقبل حيوانات شاردة أو مهملة، لعلاجها، والعناية بها. وحيوانات أخرى يحضرها أصحابها لعلاجها، ثم العودة بها إلى بيوتهم.

وقد ضم حتى الآن ما يزيد عن (٧٠) قفصًا، وقد جعلت الأقسام فيه على قسمين:

قسم انفرادي، مخصص لحيوانات لا تتأقلم مع غيرها. وقسم جماعي، لحيوانات يمكنها العيش مع غيرها بسلام. ولا يمكنني عرض كل أنواع الحيوانات التي يرعاها المركز، وتكتفي القارئ صورة عن نوع واحد من تلك الحيوانات: يضم المركز في قسم الطيور مثلاً، عدة أقسام: قسم للطيور، والعصافير، التي هجرها أصحابها، وليس لها من يعني بها.

وتحت قسم للطيور كسيرة الجناح، أو متوفة الريش، أو جريحة البدن.

وتحت قسم لطيور مصابة بنهم شديد، لا يكفيها القليل من الطعام،

أو هي من ذوات الاحتياجات الخاصة...
لدى زيارة بيوت إيدهي للحيوانات، تحتاج الزائر اليقظ،
مشاعر أنسى عميق، لتعود به إلى عوالم البشر، في علاقاتهم
بعضهم، وفي علاقتهم بغيرهم من الأمم والملوّقات.
توخي السيد عبد الستار من هذا المركز، أن ينشر رسالة الرحمة
والإحسان بين الناس، فيما بينهم، وفيما بين الناس والحيوان.
خطر له ذات يوم، أن تشارك في العناية بهذه الحيوانات، فئة من
الناس تعالج في مؤسسة إيدهي، وهي الفئة التي تعاني من
أمراض عقلية.
وقصد من ذلك، أن تكون مبادرة هؤلاء المرضى للعمل
الميداني، علاجًا لهم، وتدريبًا على مشاعر الرحمة، والرفق،
بحيوانات المركز.
ولكن تطبيق الفكرة عملياً، أثبتت إخفاقها، وعدم نجاعتها؛ فقد
فاته أن الحيوانات المريضة، والمصابة، تختزن عدوانية أكثر،
وشراسة مبالغة، جراء الآلام التي تعانيها.
فعدل عن هذه الفكرة، دون أن يستسلم، وطلب بعض الحلول
عبر الشابكة (الإنترنت)، فجاءته مقترنات متعددة، منها أن

يقوم ذوو الاحتياجات الخاصة بأعمال، لا تتصل بالحيوانات مباشرة. كالعناية بعشب الحديقة وشجرها، وبركة الماء، والاصطبلات، وتحضير طعام الحيوانات، بلا مباشرة، ونحو هذه المهام.

كما استجاب لرغبة متطوعون، فعرضوا خدماتهم. وكان فيهم أطباء بيطرون، ومحظيون آخرون، يزورون المركز بين حين وآخر.

سئل السيد عبدالستار مرة، عن القيمة التي استخلصها من إنقاذ حياة هذه الحيوانات، ورعايتها ضعيفها؟
فقال:

«هم مثلنا، مخلوقات الله تعالى، إذا لم نعطف عليهم، فلن نعطف على بعضاً. وإن ظلمناهم، فسوف نظلم بعضاً. وحين تقسو على مخلوقات الله تعالى، من بشر وحيوان، وغيرهما، فكأنك تعاند الله تعالى، الذي وهب الحياة لكل هؤلاء».

مؤسسة إيدهي: سمات وأرقام

لمؤسسة إيدهي سمات تميزها، وعلامات تفرد بها، عن كثير من المؤسسات العاملة في ذات المجال:

- لم تقييد مؤسسة إيدهي نشاطاتها وخدماتها، بمنطقة دون أخرى، ما استطاعت لذلك سبيلاً.

فكان السيد عبد الستار، والمؤسسة من بعده، لا يترددون في بذل المساعدة، صغيرة، أو كبيرة. ويؤكد عبد الستار أن أي مساعدة - منها قلت - ستعود على قلبك وروحك بالسعادة.

- تقدم مؤسسة إيدهي مساعدتها وعونها، حيث ينبغي أن تقدم، ولا تعلق المساعدة على القدرة المادية. فما أكثر ما يعجز صاحب الحاجة، وذووه عن تقديم أي شيء. وفي حالات كثيرة يكون صاحب الحاجة غير معروف، وربما كان من حاجات هذا

المجهول، تجهيزات ما بعد وفاته من تغسيل، وتكفين، ودفن.
وتدخل في هذا فئات لا تملك قدرة مادية إطلاقاً، تلتزم لهم
المؤسسة بتأمين سكن مقبول، وتعليم، ورعاية صحية،
ومعيشية.

- كما أن المؤسسة توالي اهتماماً خاصاً بالمناطق النائية
المهملة. تهتم بما من حيث توفير الأدوية الضرورية،
والتطعيمات الصحية، ونحو ذلك. ومن حيث العمل على بناء
مستوصفات، ومرافق صحية فيها، تغطي حاجتها الضرورية.
وقد سعت في هذا المجال، وحققت مستويات قياسية،
ووصلت إلى مناطق لم تصل إليها منظمات، ومؤسسات
حكومية أخرى.

ومكمن السر هنا:

أن السيد عبدالستار، كان يؤمن بأن عليه هو أن يبحث عنمن
يحتاج عوناً أو مساعدة، وأن عليه أن يبذل جهداً ليصل إلى من
لا يستطيع الوصول بنفسه إليه.

وواضح من هذا، أنه لم يكن يكتفي بما يسمع من وسائل الإعلام، أو يقرأ في الصحف، وغيرها.

- عملت المؤسسة، ومؤسسها، على تأمين تمويل المؤسسة ومشاريعها، من خلال أفراد المترعين، ورجال الأعمال، لئلا تقع المؤسسة أسيرة دولة، أو دول، أو رهينة جهات أخرى، داخلية، وخارجية.

ولهذا السبب رفض عبدالستار - فيما رفض - مساعدات عرضها عليه عدد من رؤساء باكستان المتعاقبين، خصوصاً الرئيس السابق ضياء الحق.

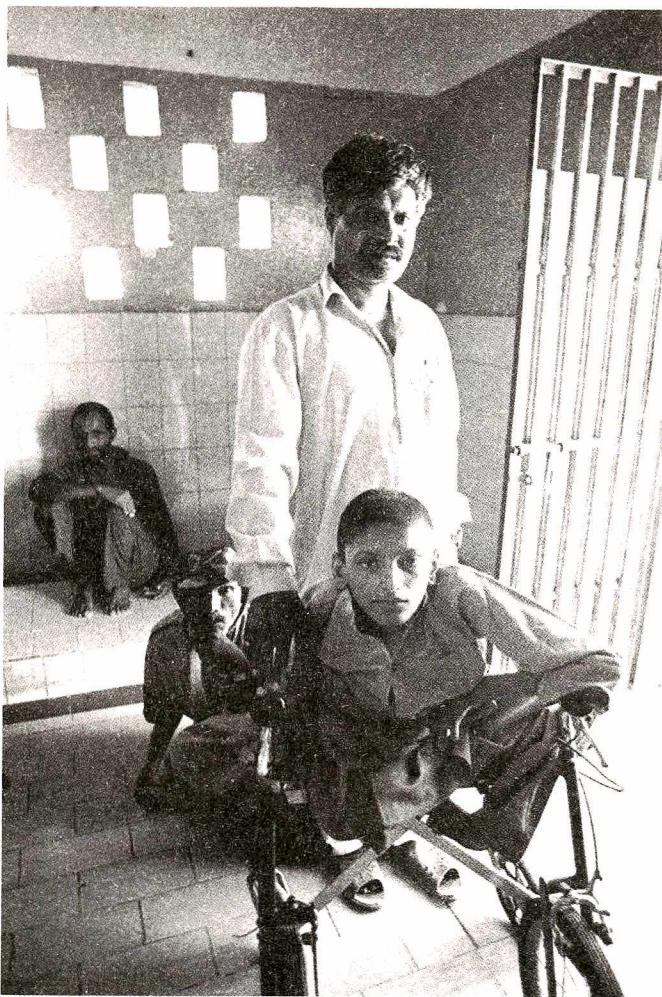
كما رفض مساعدات البنك الدولي؛ إذ كانت مرفقة بشروط...
- وضح من الفقرة السابقة، أن المنظمة قبل هدايا

الأفراد، وتبرعاتهم العينية، والنقدية، كل على قدر جوده. فتقبل مثلاً التبرع بالخراف، والماعز، والدجاج، والبقر، والملابس. كما تستقبل الأضاحي، لتقوم بتوزيعها نيابة عن أصحابها، على المحجاجين. خارج المؤسسة، أو على القاطنين في مراكزها الداخلية. توزعها بواسطة سيارات المؤسسة (فان)،

التي تطوف على بيوت المحتاجين، وتوزع مبالغ نقدية أيضًا، في
كثير من المناسبات.

- توفر المؤسسة خدمة إعادة تأهيل مدمني المخدرات.
- توفر المؤسسة أسرة للمواليد حديثي الولادة، وغيرهم،
الذين يرميهم أهلهم في الشوارع، أو في حاويات القمامة.
- توفر المؤسسة خدمات خاصة بالعجزة، من كبار السن، والمعاقين، كالكراسي المتحركة للمعاقين، والعكاكيز
للكبار السن، ونحو ذلك، كما تقدم نصائح طيبة للمرضى،
ولا سيما ما يخص مواضع الحمل والولادة.



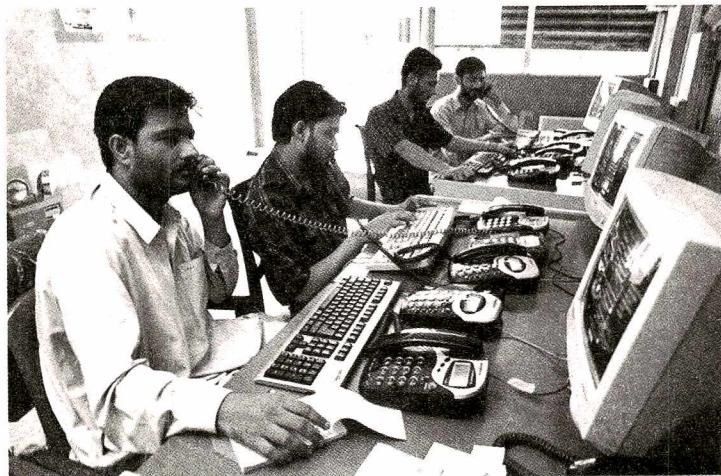


- لدى المؤسسة بنوك للدم، ومستوصف للدرن،
ومستشفى لعلاج السرطان، ومستوصفات كثيرة لتوزيع
الأدوية مجاناً.
- لشدة اهتمام المؤسسة بتوفير ملاجئ لليتامي، واللقطاء،

والمسردين؛ فقد جعلتها في بعض المناطق، ملحقة بالمدارس الابتدائية، والإعدادية، والثانوية.



- عمل المؤسسة مستمرة بنظام الطوارئ على مدار الوقت، من خلال ما يقارب (٣٠٠) مركز.



- استطاعت مؤسسة إيدهبي، تحقيق معايير عالمية، في الاستجابة لإنقاذ المنكوبين في حوادث القطارات، والفيضانات، وكثير من الكوارث. ولديها الاستعداد الإسعافي والإغاثي، براً، وبحراً، وجواً.

- فهـي تمتلك أكبر أسطول من سيارات الإسعاف في العالم، فلديها ما يزيد على (١٨٠٠) سيارة إسعاف تحت الخدمة، وأكثر من طائرة إسعاف مجهزة تجهيزاً تاماً، وعشـرات المروحـيات (هيـلو كوبـتر)، كما أنها مستعدـة للإسعاف البحري بـعدد مـن الزوارـق.



- قامت المؤسسة برعاية (٥٠٠٠٠) يتيم، إيواءً، وإطعاماً، وإكساءً، وتعليقً، وغير ذلك.

- قامت بـإيواء (٢٠٠٠٠) طفل مشرد، ورعايتهم، كما سبق في التامى:

- قامت المؤسسة بتدريب (٤٠٠٠) على خدمات

التمريض، وتجهيز وفيات النساء، ودفنهن، مع العلم أنها تعطي
أجرًا للمتدربة مدة التدريب.

- قامت بتحمل تكاليف تجهيز أكثر من (٣٠٠٠٠)
متوف، تجهيزًا تاماً، ونقل بعضهم، ودفنهم.

- تقيم المؤسسة دورات تدريبية، لمساعدة الناس على
تنمية مواهبهم في مواجهة مصاعب الحياة، وتقدم دروساً
ودورات تربوية دينية.

- لم ترض همة عبد الستار، ببقاء المؤسسة في النطاق
الم المحلي، فانطلقت نحو العالمية، تقدم خدمات الإغاثة، وتمدد
أيدي العون العاجلة، لكوارث تقع في بلدان قرية، وبعيدة. من
تلك الدول التي وصلت إليها مؤسسة إيدهي:

أفغانستان، أثيوبيا، سريلانكا، أندونيسيا، كرواتيا، إيران،
البوسنة والهرسك، وقد كانت دولة لبنان من الدول التي
هرعت منظمة إيدهي لمساعدتها إبان العدوان الصهيوني عليه
عام /٢٠٠٦ م.

- قامت بمساعدة منكوبى غزة في فلسطين المحتلة،

وتبـرعت بـمبلغ (١٠٠٠٠) دـولـار، لـشـراء مـواد إـغـاثـية وـطـبـية عـاجـلة، وـبـمـبلغ (١٠٠٠٠٠) دـولـار أمـريـكيـيـ، بـالـإـضـافـة إـلـى عـربـة إـسـعـافـ، تـسـلـمـها الـأـهـلـالـ الأـحـمـرـ المـصـرـيـ لـتـوـصـيلـها لـمـنـكـوبـيـ العـدـوـانـ إـلـاـرـائـيـ عـلـىـ غـزـةـ كـمـاـ أـنـهـاـ فـتـحـتـ حـسـابـاـ (بنـكـيـاـ) لـلتـبـرـعـ لـمـسـاعـدـةـ شـعـبـ غـزـةـ الـمـحاـصـرـ.

- قـدـمـتـ مـسـاعـدـاتـ عـاجـلـةـ مـتـنـوـعـةـ، لـضـحـاـيـاـ إـعـصـارـ سـدـرـ فـيـ بنـغـلاـديـشـ.

- تـبـرـعـتـ المؤـسـسـةـ بـمـلـبغـ (١٠٠٠٠٠) دـولـارـ، لـلـبـاكـسـتـانـيـنـ العـامـلـيـنـ فـيـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ الـأـمـريـكـيـةـ، الـذـينـ تـضـرـرـواـ فـيـ أـحـدـاـثـ (أـيـلـولـ /ـ سـبـتمـبرـ)، فـيـ نـيـويـورـكـ عـامـ ٢٠٠١ـ.

- تـبـرـعـتـ المؤـسـسـةـ بـ (١٠٠٠٠) دـولـارـ، لـضـحـاـيـاـ إـعـصـارـ (ـكـاتـرـيـناـ)، فـيـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ الـأـمـريـكـيـةـ، عـامـ ٢٠٠٥ـ.

- تـدارـ شـبـكـةـ إـسـعـافـ الجـرـحـىـ وـالـمـتـضـرـرـيـنـ مـنـ الـكـوـارـثـ وـالـحـرـوبـ مـنـ خـلـالـ نـظـامـ لـاسـلـكـيـ.

- اتسـعـتـ نـشـاطـاتـ المؤـسـسـةـ، فـقـامـتـ باـفـتـاحـ فـروعـ فـيـ

عدد من عواصم العالم المختلفة، وقد بلغت حتى الآن (١١) فرعاً منها: لندن، واستراليا، وكندا، وإيطاليا، وفرنسا، وبنجلاديش، والإمارات العربية المتحدة، وال مجر، وألمانيا.

ويعد فرعها في نيويورك، في الولايات المتحدة الأمريكية، أكبر فرع خارجي للمنظمة، لضخامة الفرع والعمل هناك.

- اعتقله الصهاينة عام ١٩٨٠ م، خلال دخوله لبنان لأعمال إغاثية.

- تم إيقافه في تورونتو - كندا، عام ٢٠٠٦ م، مدة ١٦ ساعة، في المطار.

- أوقفه مركز الهجرة الأمريكي، في مطار(جون كينيدي)-نيويورك - الولايات المتحدة الأمريكية، عام ٢٠٠٨ م، مدة (٨) ساعات، وسحب منه جواز سفره، وعدة أوراق أخرى.

وفي جواب مَن سأله عن أسباب توقيفه قال: «التفسير الوحيد الذي يمكن أن أفكِّر فيه هو لحيتي ولباسي». وفي وقت لاحق عرضت عليه الولايات المتحدة الأمريكية الجنسية !.

- عام ٢٠٠٨ م انهارت ثانوي كتل صخرية ضخمة، من قمة جبل المقطم، في منطقة الدويبة من مصر، فحضر إلى مصر، وطلب اجتماعاً مع محافظ القاهرة، لترتيب توصيل (١٠٠٠) دولار، لكل أسرة متضررة.

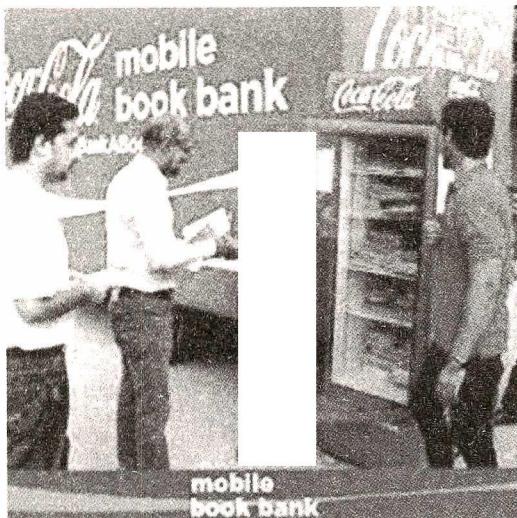
وكان عدد الضحايا حينها كبيراً، لأن الانهيارات كان على منطقة سكنية عشوائية.

- منعه السلطات المصرية من دخول غزة، لأهداف إغاثية عام ٢٠٠٩ م.

قدم مساعدات غذائية، وأطناناً من الطحين، لسكان بعض المناطق الفقيرة المتضررة من القتال، التي كانت تحت حكم طالبان.

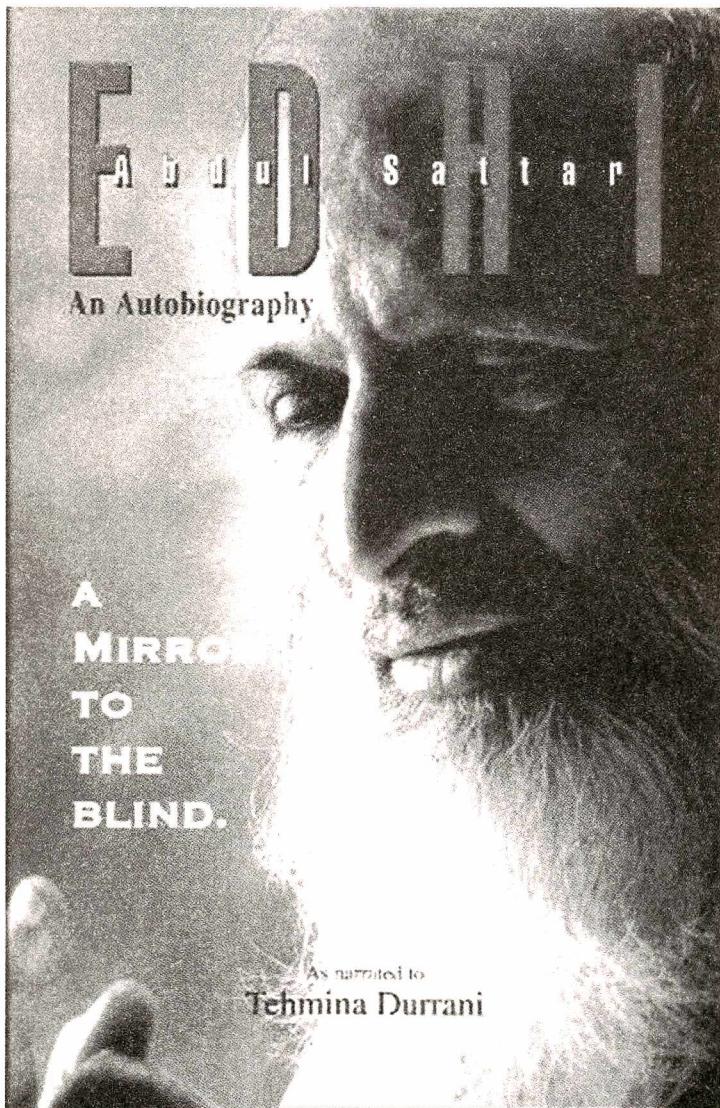


- تعاونت معه شركة (كوكاكولا)، بهدف جمع التبرعات
للمحتاجين.

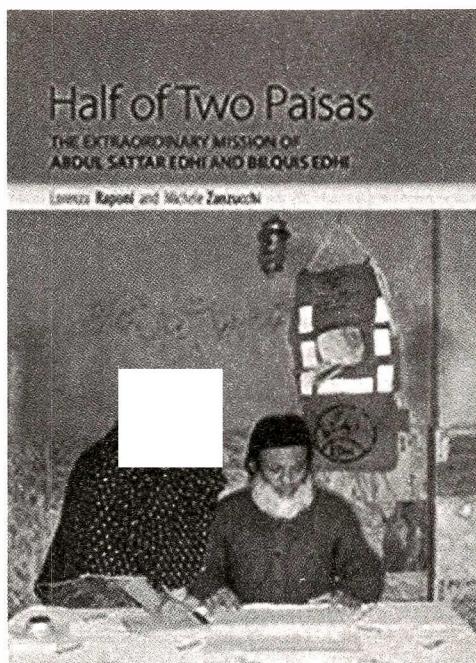


- أُلْفت عن حياته كتب كثيرة، وكتبت عنه مقالات أكثر،
بعدة لغات، وأكثرها بالإنجليزية والأوردو، ولم أجده كتاباً
واحداً بالعربية. ورسمت له رسومات جدارية كثيرة جداً، كما
أعلن الممثل البالكستاني العالمي، في (بوليود) نصر الدين شاه، أنه
يقوم بتمثيل دور الراحل عبد الستار إيدهي، في فيلم اسمه (أنا
إيدهي = I am Edhi)، وسيعرض قريباً.

عبدالستار ايدهي .. أغنى رجل فقير



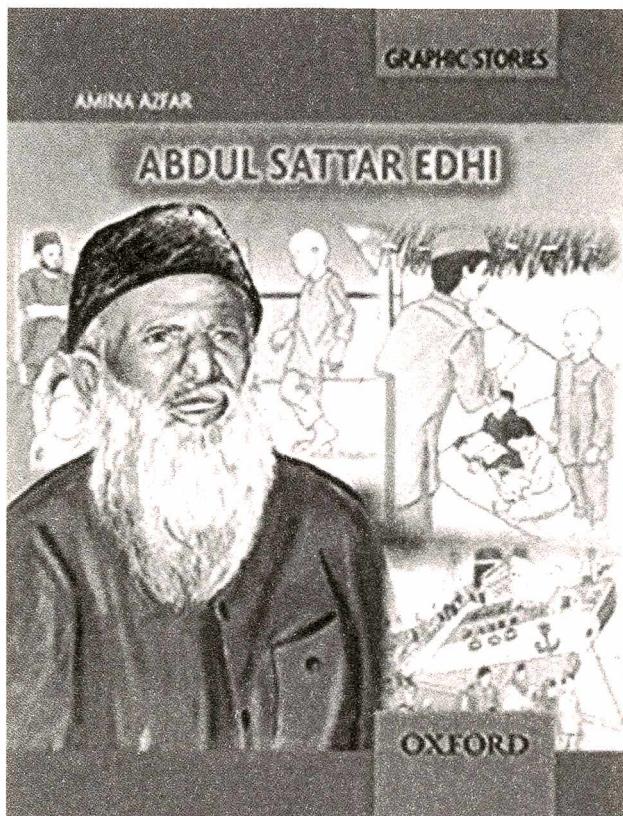
عبدالستار ایدھی .. أغنى رجل فقير



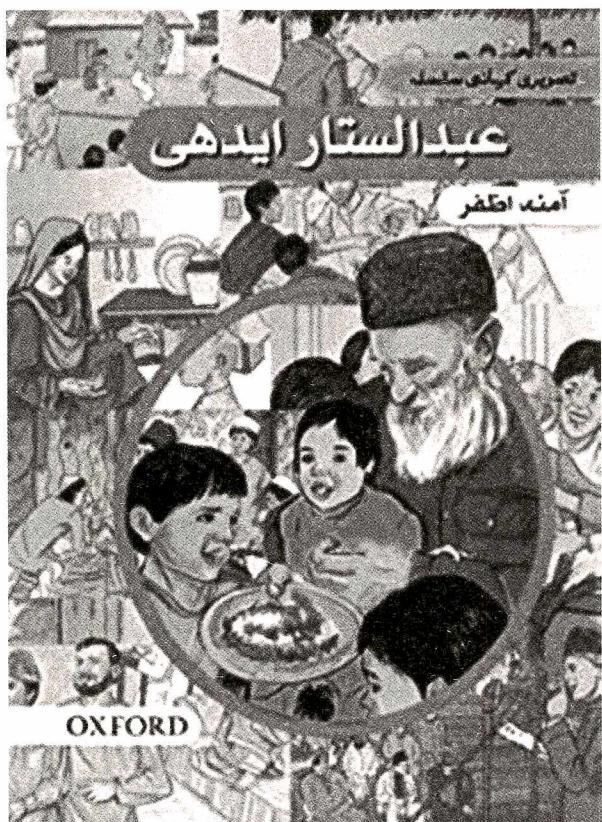
OXFORD



عبدالستار ایدھی .. اگنی رجل فقیر

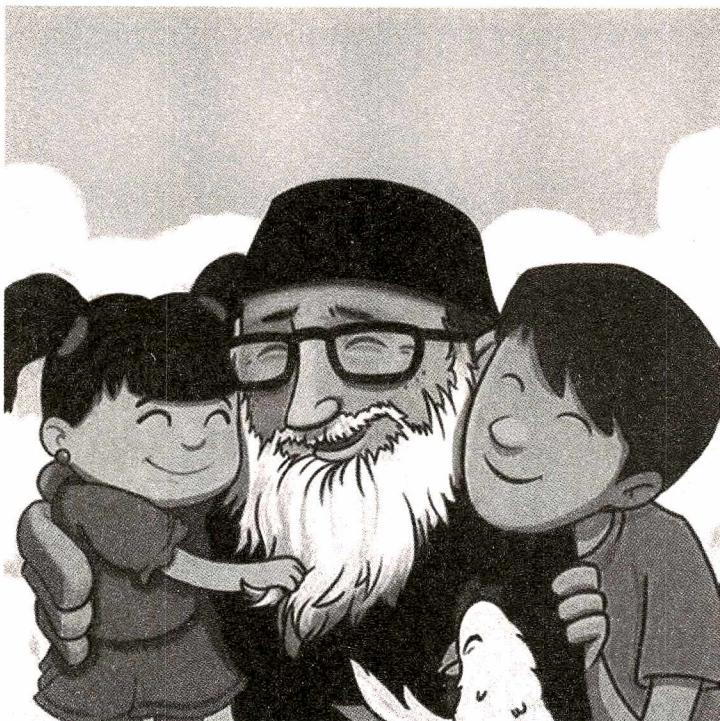


عبدالستار ايدهي .. أغنى رجل فقير



عبدالستار إيداهي .. أغنى رجل فقير



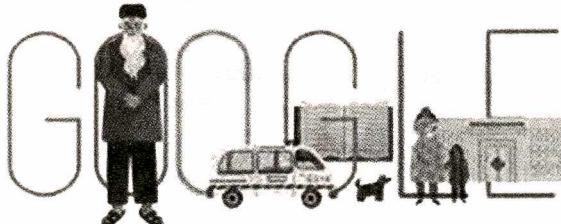


جوائز نالها إيدهي وزوجته ومؤسساته

نال السيد عبدالستار إيدهي، -رحمه الله تعالى-، وزوجته بلقيس، ومؤسساته جوائز وأوسمة كثيرة منها:

- ١ - وضعت (غوغل) تكريماً له، في ذكرى ميلاده الموافق ١٧ مارس، آذار / ٢٠١٧ م. صورته شعاراً لها.

ABDUL SATTAR EDHI'S
89TH BIRTHDAY



- ٢ - جائزة (رامون ماغسايسي) لدعم الخدمة العامة = (Ramon Magasaysay Award Foundation) في مانيلا بالفلبين عام ١٩٨٦ م.

كانت الجائزة بالاشتراك بين السيد عبد الستار، وزوجته بلقيس.

٣- جائزة من مؤسسة (فلاديمير لينين) للسلام عام ١٩٨٨ م، من الاتحاد السوفيتي سابقاً.

٤- جائزة السلام، للمشاركين في إغاثة ضحايا الزلزال، الذي أصاب أمريكا عام ١٩٨٨ م.

٥- منح (الدكتوراه) الفخرية، من مؤسسة الأعمال الخيرية، في كراتشي مع (نيشان) الامتياز عام ١٩٨٩ م.

٦- جائزة المؤسسة الدولية للسلام والأخوة، عام ٢٠٠٠ م.

٧- جائزة (بالزان الدولية) = The International Prize Foundation Awards عام ٢٠٠٠ م، في روما بإيطاليا، وذلك لدعمه العمل الاجتماعي الخيري التطوعي.

٨- دخل موسوعة غينيس للأرقام القياسية عام ٢٠٠٠ م، لضمـه أكبر أسطـول سيـارات إسعـاف طـوعـية في العـالـم (أكـثر من

- ١٥٠٠ سيارة إسعاف). وقد زاد العدد بعد هذا التاريخ.
- ٩ - جائزة السلام في مومباي الهندية عام ٢٠٠٤ م.
- ١٠ - جائزة أخرى مماثلة للسلام في حيدر آباد عام ٢٠٠٥ م.
- ١١ - جائزة غاندي للسلام عام ٢٠٠٧ م، في دلهي الهندية لدعمه للسلام.
- ١٢ - جائزة من الرئيس الباكستاني السابق (برفيز مشرف)، عام ٢٠٠٧ م، بصفته مواطناً باكستانياً، وقيمتها (١٠٠٠٠) روبية.



وقد أثار قبول السيد عبد الستار هذا التبرع لغطاً، لدى بعض الناس، ذلك لأنه يُعد خروجاً عن قانون من قوانين منظمة إيدهي، وهو عدم قبول تبرعات من رؤساء دول، أو حكومات، أو أحزاب، لتظل المنظمة حرّة في أعمالها، لا تقييد

نفسها بشروط، ولا ترهن حركتها لجهة، أيًا كانت تلك الجهة.
وقد رفض السيد عبد الستار في زمن أسبق تبرعًا من رئيس باكستاني سابق.

لأنه لا يرى الظروف التي أحاطت بالواقعة، ولكن التفاصيل التي وصلتنا تؤكد أن الرئيس السابق برفيز، ألح على قبولها بصفته مواطنًا باكستانيًا، وأنه لم يشترط معها أية شروط.

- ١٣ - جائزة السلام في كوريا الجنوبية، عام ٢٠٠٨ م.
- ١٤ - حصل جائزة لجنة (مادنجيت) في عام ٢٠٠٩ م، وهي لجنة تابعة لليونسكو.
- ١٥ - جائزة حمدان بن راشد، في الإمارات العربية المتحدة، للمتطوعين في الخدمات الطيبة والإنسانية.



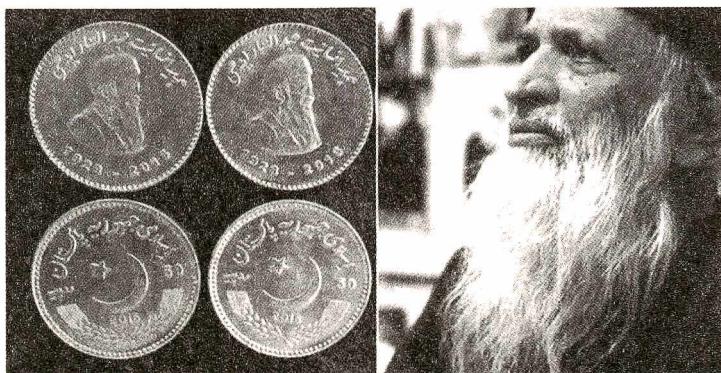
- ١٦ - جائزة حقوق الإنسان من الحكومة الباكستانية.
- ١٧ - جائزة (الأحمدية) للسلام، في بريطانيا، عام ٢٠١٠ م.

وهو ثاني رجل ينالها، لأنها تأسست عام ٢٠٠٩ م، ومقدارها (١٠٠٠٠) جنيه استرليني.

١٨ - حصلت السيدة بلقيس على الجائزة العالمية لذكاء (الأم تيريزا)، للعدالة الاجتماعية، عام ٢٠١٥ م.

١٩ - رشح مراراً لنيل جائزة نوبل للسلام.

٢٠ - أصدر البنك الباكستاني عملة معدنية من فئة (٥٠) روبية، طبعت عليها صورة عبدالستار إيدهي؛ تذكاراً لجهوده، وتقديراً لخدماته لبلده.



ملحوظتان :

أحب أن أنه بأمرين:

١ - هذه أهم الجوائز التي نالها السيد عبدالستار، هو

ومؤسسته، وزوجته، لا كلها؛ فهناك جوائز غيرها محلية،
وعالمية، كثيرة.

- ٢ - أن السيد عبد الستار - رحمه الله تعالى -، قد تبرع بكل
المبالغ النقدية، التي قدمتها هذه الجوائز وغيرها، لمصالح
مؤسسة إيدهي، ونشاطاتها، وخدماتها. ولئلا أكمل القول بعد
كل جائزة، بتبرعه بها للمؤسسة، أرجأت القول إلى هذا
الموضع.

ولا غرو؛ فمن جادت نفسه بزهرة عمره، وما رب شبابه،
ووجيب قلبه، ورفانينة جسمه، للفقراء، واليتامى، والضعفاء،
والمحاجين، لا يستغرب منه ألا يستبقي لديه مالاً، بله جمعه،
وتكتديسه، وقنطرته.

الفصل الآخر...

ما فتئ عبد الستار على عهده مع نفسه، ومع المعذبين، حتى
آخر بريق من ضياء عينيه!.

ظل يجبر الكسور، ويطارد الألم، والفقر، والجوع، والتشرد،
والمرض، ويحاول محاصرة كثير من أسبابها، حتى آخر أرماقه.
صحيح أنه لم يكن يطمع لإنهاء هذه المأساة المتراكمة،
والأوجاع المزمنة، بالضربة القاضية، ولكنه طمح إلى الإمساك
بتلابيب الأسى، والعوز، والسغب، والسرف، والألم، وما تولد
منها، فعاجلته المنية ولما يمسك...

واستطاع - بعد مكابدة - أن يكون نسمة أمل لطيفة، تتنفس من
خلالها أكباد الضعفاء، والمخنوقين، واليائسين.
لم يكن قلبه ليصدق، كيف يقع هذا للإنسان، وأخوه في
الإنسانية: فرحان، ملآن، شبعان؟!.

كيف لا يهبط قلبه، رحمة بأخيه، ولماذا فاق الصخور، قسوة،
وصمماً؟!.

نداء الوطن واجب التلبية، على أي حال، فكيف إذا كان المليبي قد سعى بين الآلام والأمال، يصرّ عها وتصرّ عه، ويطرّحها وتطرّحه،

ثم قضى كل أشواطه، ولما يقضى كل أشواقه، ثم آب إلى وطنه.
وكل غريب، يلزمه حاجس العودة، فقد كان عبد الستار
يستشعر لحظة عودته، فأعد للمعذبين والمحاجين، كل ما
يستطيعه من خطط مستقبلية، ودراسات لمستجدات الأيام،
وطوارئ الأحداث.

بِلْ عَبَرَ عَنْ ذَلِكَ بِكُلِّ ثُقَةٍ:

«لعل وفاته تكون اختباراً حقيقياً لخدمات المنظمة، وأنا ملتئع ثقة وأملاً، بأن الإخوة جميعاً سيتغلبون على العقبات، ومشكلات الواقع الملتهب، في وقت قصير. لقد وضعنا دراسات، تتناول النواحي الاقتصادية، والتنفيذية، وغيرها، وهي معدة جاهزة.

قد تكون الأيدي التي ستكمّل الطريق، أقل تطوعاً و تبرعاً،
ولكنها نشأت على حب العمل الخيري، والإسهام فيه.

ففي بيتي مثلاً، أو لادي يتنفسون العمل الخيري، والشعور بالمعاناة، وأأمل أن يقدموا أفضل مما قدمت؛ ذلك لأنهم سبقوني بخطوتين مهمتين:

إكمال التعليم الدراسي، وتمكنهم من التحدث باللغة الإنكليزية. كما أنهم يفوقونني في التطلع للمستقبل، وفي الإعداد لمفاجآته. ولدي (فيصل) ذكي جداً، مبدع، ينشط في العمل الخيري في المنظمة، في باكستان، وقد اقترح كثيراً من المقررات، وقدّم مخططات تسهم في توسيع نشاط المنظمة، وهو يجود بكل وقته للمنظمة.



فيصل عبد الستار

أما ولدي (كتاب)، وابتي (كُبرى)، فيعملان في لجنة خيرية، في الولايات المتحدة الأمريكية..، إنها يقومن بعمل ممتاز هناك. وكذلك ألاس، تساعد أختها في الخدمات النسائية، ورعاية الأطفال.

وسيكون الجميع قادرين على إتمام المشاريع التي بدأوها. أنا مجرد أداة، وواسطة، لأقدار الله تعالى. أنا سعيد بما أجزتُ، وإن كنت أعتقد جازماً أن هناك الكثير مما يمكن إنجازه.

أهم شيء أن يستشعر الإنسان، طبيعة أخيه الإنسان؛ ليحقق هويته، ويحيا معه بسلام.

فلا ينبغي أن تحجب الإنسان، حواجز العنصرية، والدين، والهوية الوطنية، والعرقية، وحواجز الجنس، وغيرها، عن إدراك حقيقة مهمة، وهي أننا نحتاج ذات الحاجات، ونشترك في نقاط الضعف ذاتها.

ليس الوصول إلى هذا الهدف سهلاً، ولكن يجب العمل باتجاهه، وذلك بخدمة الناس بجد وتفانٍ، وأن نكون قدوة لغيرنا، ولن يتحقق السلام العالمي، إلا بهذه الطريقة.

أعني تطيب النفوس، وتحفيظ معاناة الفقراء، ودحر الظلم،
ووضع حد للتمييز العنصري.

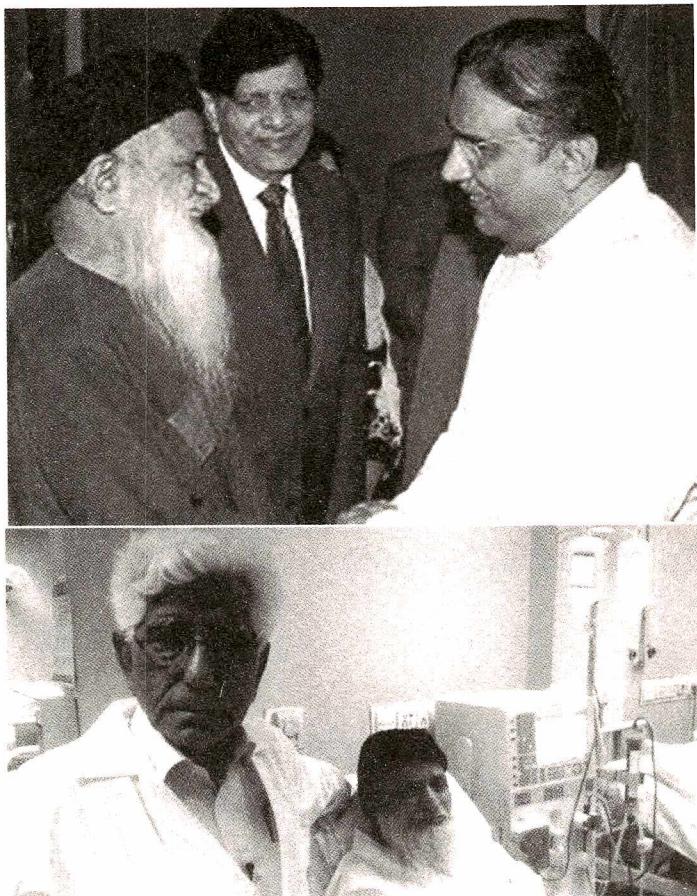
ومن الضرورة بمكان، تدرис هذه المعانى للأجيال القادمة؛
ليكونوا على وعي تام، قبل أن يتقمصوا أي قميص، أو ينتموا
لأى هوية.

يجب أن ينتموا للهوية الإنسانية».

وعلى طول هذه المسيرة، وثقل الأعباء، لم يأخذ إجازة، ولو يوماً
واحداً، اللهم إلا يقدهه مرض، أو شأن خاص!.

أصيب السيد عبدالستار إيدهي، بما يُعرف بـ(الفشل الكلوي)
عام ٢٠١٣م، فعرض عليه الرئيس الباكستاني - آئند - آصف
علي زرداري^(١)، أن يعالج خارج البلاد، فرفض، مصراً على
العلاج في مستشفى محلي في باكستان، يعالج فيه عامة الناس ...

(١) - آصف علي زرداري: رئيس باكستان السابق هو ابن حكيم علي زرداري، رئيس إحدى القبائل السنديّة، تزوج آصف بنظير بوتو عام ١٩٨٧م. وفي عام ١٩٨٨م، فازت زوجته بمقعد رئيسة الوزراء، وفي العام ذاته أصبح زرداري عضواً في الجمعية الوطنية لباكستان، ثم شغل منصب وزير البيئة والاستثمار في حكومات بوتو.



ذق هذا الكلام، وأنت تحترق أَلْيَأِ، أو تكابد قرحاً قد
أَمْضَكَ، أو تبريحًا قد هدك.

قارِنْ هذا بها تعرف وأعرف، عن كثيرين هرعوا إلى السفر إلى
الدول المتقدمة تقنياً وصحياً، من أجل رعاية أقل، وحاجة
أدون...

إذا انقضـعت عن قلوبـنا غـواشـي الغـفـلـاتـ والمـكـابـدـاتـ، يمكنـ أنـ
نـقـرـبـ شـيـئـاـ قـلـيلـاـ منـ إـحـسـاسـ عـبـدـ الـسـتـارـ بـمـعـانـاهـ أـضـعـفـ
الـحـلـقـاتـ، وـهـوـ فيـ أـضـعـفـ أـطـوارـهـ. لـقـدـ أـمـضـىـ رـبـيعـ عـمـرـهـ،
وـخـرـيفـهـ، سـاعـيـاـ لـغـرسـ هـذـاـ المـعـنـىـ فـيـ روـعـنـاـ، وـلـيـلـغـ بـنـاـ تـلـكـ
المـنـزلـةـ.

كـيـفـ، وـقـدـ أـضـحـىـ عـلـىـ مـشـارـفـ الـعـودـةـ إـلـىـ الـوـطـنـ، مـصـغـيـاـ
بـكـلـتـاـ أـذـيـهـ، وـبـكـلـ مـسـامـعـهـ، لـقـرـارـ خـرـوجـهـ مـنـ الـمـعـتـقـلـ، وـتـجـلـتـ
لـبـصـيرـتـهـ حـقـيقـةـ الـغـرـبـةـ، التـيـ كـادـ أـنـ يـصـلـ إـلـىـ آـخـرـ مـراـحـلـ
عـبـورـهـاـ.

إـنـهـ مـرـحـلـةـ تـبـلـغـ فـيـهـ السـرـيرـةـ درـجـةـ عـالـيـةـ مـنـ وـضـوحـ الرـؤـيـةـ،
وـلـاسـيـماـ بـعـدـ اـنـزـياـحـ كـلـ مـعـكـراتـ النـظـرـ، مـنـ غـبـشـ، وـضـبابـ،
وـشـيـابـ، وـمـقـنـطـرـاتـ أـمـوـالـ، وـسـكـرـ مـنـصـبـ، وـأـشـيـاهـهاـ.
غـفـلـنـاـ، وـغـفـلـ أـكـثـرـ النـاسـ، وـقـدـ كـانـ حـقـيقـاـ بـكـلـ ذـيـ لـبـ، أـنـ
يـتـعـهـدـ وـلـيـجـةـ رـوـحـهـ بـذـكـرـيـ هـذـاـ الـوـطـنـ، وـأـنـ يـعـبرـ عـبـورـ
الـغـرـبـ، وـيـجـلـسـ جـلـسـةـ الـمـسـتوـفـزـ، وـيـمـشـيـ مـشـيـةـ الـحـذـرـ.
لوـ كـانـ هـذـاـ، لـكـانـتـ دـنـيـانـاـ غـيـرـ مـاـ نـرـىـ، وـلـتـكـامـلـتـ لـسـعـادـةـ

أرواحنا أسبابها.

قبل وفاته بأربعة أشهر، صرخ لوكالة «فرانس برس»، وقد
وهن منه العظم والجسم:

«لقد عملتُ كثيراً... أنا راضٍ عن حياتي».

لا يمكن لكاتب، ولا لشاعر، ولا متحدث، أن يرتقي بيانه إلى
مستوى يقتدر فيه على وصف طعم الراحة القلبية، والسعادة
الروحية، التي يذوقها أهل المعروف.

إنها أذواق سماوية، تنسكب في قلوبهم وذراتهم، حين يقدمون
 شيئاً لأكباد جائعة، وعظام عارية، وأوجاع ملتهبة، وأرواح
يائسة، وشئى حاجات أخرى.

هذا الرضى الذي يجده في قلبه، هو الرضى الذي وجدته قلوب
أرضها، وهذه السعادة، هي السعادة التي أفضتها على قلوب
أسعدها عمله، وخدمته.

وفعلاً تم تنفيذ رغبته بالعلاج في مستشفى محلٍّ، وبقي في عناء مع غسل الكلي، مدة ثلاثة سنوات، حتى وافاه أجله - رحمه الله تعالى - في وقت متاخر من مساء الجمعة ٢٠١٦ / ٨ / ٦ م، بعد أن توقفت كلية عن العمل، خلال غسيل الكلي.

توقفت حركة جسمه، المضني من لغب اللحاق بهمّه، وهِمَّته. ولكنَّه لم يشأ بجسمه ألا يشارك همته بعد وفاته، فتبرع بكل أعضائه، ولكنَّ خلايا أعضائه كانت في حالة تلف شديد، ولم يكن صالحًا للتبرع للفقراء سوى عينيه !

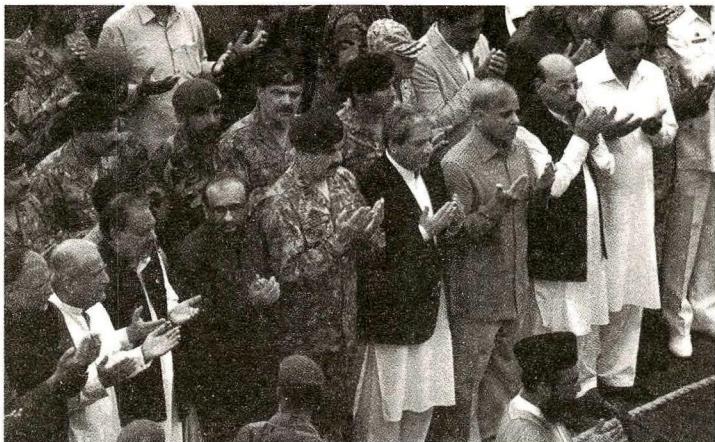


فور إعلان نبأ وفاته، أمر رئيس الوزراء الباكستاني السابق نواز شريف، بإقامة جنازة رسمية، وأعلن الحداد الوطني مدة يوم، وكان مما قال:

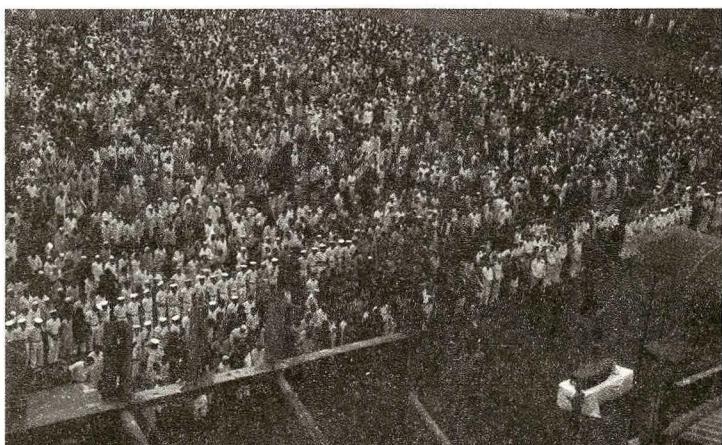


«إذا كان هناك من يستحق أن يدفن، وهو مكفن بالعلم الوطني، فهو (إيديهي) بالتأكيد، كنت أتمنى لو أنه حظي بقدر أكبر من التقدير في حياته، ولكن أقل ما يمكننا فعله، هو أن نكرم حياة كان ملؤها العطف والرحمة».





كان ألم رحيله كبيراً على محبيه وعارفيه عموماً، وعلى
الباكستانيين خصوصاً، فأغلقت المحلات، وتدفقت الجموع
لتشييع جنازته، وبكته مدامع وقلوب، وحملت نعشة أعناق
لطالما طوقها بحبه، وإحسانه...



رحمه الله تعالى.

وداع

عندما أقلعت همم عبد الستار، في مركبـه الإسعافـي الأولـ، لم يكن خط رحلته مذللاًـ، ولا كانت تحفـه جـناتـ الـراحةـ، والنـعيمـ، عن يـمينـ وـشـمالـ، ولا كان يـعلمـ ما يـخـبـئـهـ الغـيبـ المـكتـومـ. أدـلـجـ عبدـ الـسـtarـ بلاـ سـرـاجـ سابقـ يـقلـدـهـ، وـمعـ هـذـاـ فـلـمـ يـقتـصـرـ فيـ وـكـدهـ عـلـىـ إـسـعـافـ الـأـجـسـامـ وـإـغـاثـتـهاـ، بلـ ضـمـ إـلـيـهـاـ إـسـعـافـ قـلـوبـ رـانـتـ عـلـيـهـاـ قـسـوةـ، أـنـسـتـهـاـ حـيـنـاـ، وـأـفـقـدـتـهـاـ بـوـصـلـتـهـاـ فـيـ أحـيـينـ كـثـيرـةـ.

حـلـيفـ التـوفـيقـ، قـارـئـ عـبـرـ مـنـ هـنـاـ، فـقـبـسـ مـنـ هـذـهـ السـيـرـةـ أـوـفـ نـصـيبـ، وـاغـتـرـفـ مـاـ اـسـطـاعـ أـنـ يـغـترـفـ، حـتـىـ تـهـدـلـ عـلـىـ أـعـالـهـ، وـقـلـبـهـ، وـسـجـايـاهـ، زـكـاءـ، وـعـطـاءـ، وـسـخـاءـ.

ذـلـكـ أـنـ حـظـوـظـ العـابـرـينـ مـتـفـاوـتـةـ: فـعـابـرـ يـرـضـىـ مـنـ اللـحـمـ بـعـظـمـ الرـقـبةـ، وـمـنـ الذـبـيـحةـ بـظـلـفـهـاـ، وـثـانـ قـصـارـىـ غـایـاتـهـ تـسلـیـةـ وـقـتـهـ، وـمـاـ تـیـسـرـ مـنـ فـائـدةـ، وـثـالـثـ وـطـدـ ذـاتـهـ عـلـىـ صـعـودـ كـلـ مـدارـجـ

الخير والبر، ولن ينشئي قبل سدة الارتواء.

من العبر الكثيرة التي تأثرت بها عميقاً، في سيرة عبد الستار -
رحمه الله تعالى -، بره بأمه، وإرجاعه كل ما يسره الله تعالى على
يديه إلى نعومة تربيتها له، وقد يم تدربيها.
والأغرب في هذا، أن تنفذ كلمة من كلماتها التربوية، عبر
سجف الغيب، وتحترق حجب الزمان، لتكون له لقباً، وبهويته
تعريفاً.

إنها أول من أطلق عليه لقب (ملك الإنسانية)^(١)، قالتها تربية،
وتعنيفاً، وقاها الناس والعالم، إكباراً، وعرفاناً، وحباً!

(١) - انظر ص، ٥٧ / ٢٦.

المراجع = Resources

- ١ - موقع الجزيرة نت aljazeera.net العربي.
- ٢ - الأوقاف وأثرها الاجتماعي في المجتمع المسلم: عبد الله بن ناصر السدحان.
- ٣ - موقع جائزة حمدان بن راشد آل مكتوم للعلوم الطبية.
- ٤ - مراسلة، ومحادثة، وإفادة، من الأستاذ راسخ الكشميري، من خلال حسابه على (تويتر)، وصفحته على (الفيس).

5- edhi.org

6- www.aljazeera.com

7- Powell, Ellen. "Pakistan's Mother Teresa': Google Doodle honors Abdul Sattar Edhi." Christian Science Monitor, 28 Feb. 2017.

8-

<link.galegroup.com/apps/doc/A483536110/SUIC?u=powa9245&xid=4e5ed49e>.

Accessed 27 Apr. 2017.

9- Half of Two Paisas,

THE EXTRAORDINARY MISSION OF ABDUL
SATTAR EDHI AND BILQUIS EDHI,

Lorena Raponi and Michele zanzucchi,
oxford university press.

10- Solomon, Feliz. "Google Doodle Celebrates
Philanthropist Abdul Sattar Edhi." Time. Time, 27
Feb. 2017. Web. 01 May 2017.

11- <http://time.com/4685113/google-doodle-abdul-sattar-edhi-ambulances/>"The Crime That
Has Shocked Pakistan." Morning Edition, 22 Oct.
2014.

12- link.galegroup.com/apps/doc/A390420280/SUIC?u=powa9245&xid=b745544b.

Accessed 2 May 2017.

13- THE

RAMON MAGSAYSAY AWARD FOUNDATION

14- International Women's Rights Cases

Robyn Emerton,Kirstine Adams,Andrew
Byrnes,Jane Connors

15- Sommerlad, Joe. "Abdul Sattar Edhi: 5 Things

You Didn't Know about 'Pakistan's Mother
Teresa'." The Independent. Independent Digital
News and Media, 28 Feb. 2017. Web. 12-01 May
2017.<http://www.independent.co.uk/news/world/asia/abdul-sattar-edhi-google-doodle-pakistan-philanthropist-volunteer-medical-care-network-ambulances-a7603221.html>

16-<http://storyofpakistan.com/13->"STATEMENT BY

NSC SPOKESPERSON NED PRICE ON THE PASSING

OF ABDUL

SATTAR EDHI." States News Service, 10 July 2016.

17- Biography in Context, |

ink.galegroup.com/apps/doc/A457537189/BIC1?u=powa9245&xid=cb4c2e01.

Accessed 28 Apr. 2017.

18- Elliott, Joel. "In gritty Karachi, husband-wife team saves unwanted babies." Christian Science Monitor, 14 July 2008, p. 1.

19-

link.galegroup.com/apps/doc/A181271532/BIC1?u=powa9245&xid=a71c67ae. Accessed 8 May 2017.

20 -<http://heavy.com/>

21-www.telegraph.co.uk/The Edhi Foundation - My Hero's Foundation website

الفهرس

٥	الإهداء
٧	المقدمة
١٣	موهبة في مخزن التوفيق
٣٣	أولى محطات الرضى
٤١	زواج متأخر... للطموح منه نصيب
٤٧	انطلاق في الإنسانية
٦١	مشاريع بلا هوادة
٦٩	سر آخر
٧٧	المرأة في مؤسسة (إيدهي)
٨٥	حكمة قلب
٩١	الشقيقة الكبرى
١٠١	صور وآثار
١٠٧	ذكريات ومحطات
١١٣	بيوت إيدهي والتبني

١١٧	تنبيه إلى خطأ
١١٩	تنويه بفضيلة
١٢١	الرعاية بين الأسرة والمراکز العامة
١٢٧	طوح من باطن قدر
١٣٣	وللمعرضين كليمة
١٦١	تصحيح الفهوم أول
١٧١	وللحيوانات بيوت ورعاية
١٧٧	مؤسسة إيدهي: سمات وأرقام
١٩٥	جوائز نالها إيدهي وزوجته ومؤسسة
٢٠١	الفصل الأخير...
٢١٣	وداع